أصــل الفــروق بين الجــنسين

* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الألماني :

Ursula Scheu : Wir werden nicht als Maedchen geboren wir werden dazu gemacht, Frankfurt a.M.1977.

نحن لا نولد بنات ، بل هكذا يصنعون منا .

* أصل الفروق بين الجنسين -

* تأليف : اورزولا شوي -

* ترجمة : بوعلي ياسين -

* الطبعة الثانية 1995

* الناشر: دار الحوار - سورية- اللاذقية

ص . ب 1018- هاتف 422339

المؤلفة أورزولا شوي

أصل الفروق بين الجنسين

ترجمة بو علي ياسين

إهداء المؤلفة

إلى ايرمغارد 72 سنة .

واندريا 5 سنوات .

كلمة للمترجم

اورزولا شوي ، دبلوم في علم النفس ودكتوراه فلسفة . درست الفلسفة وعلم الاجتماع في جامعة فرانكفورت وعلم النفس في الجامعة الحرة ببرلين . عملت من عام 1971 إلى عام 1976 معيدة علمية في المعهد النفساني التابع لجامعة برلين ، وأشرفت هناك على مشروع بحث حول المشاكل النفسانية لعمل المرأة المهني . وقد نشطت في مركز النساء البرليني ، وهي واحدة من المجموعة التي تصدر الرزنامة النسائية ، وتنتمي إلى مجموعة النساء التي تعمل في البيت الأول « للنساء المضرويات » في برلين .

لن يخفى على القارىء أن الكاتبة تسترشد بالفكر الماركسي ، وإن كانت تهاجم في الفصل الأول كبار الماركسيين (ماركس وانغلز وبيبل) فيما يخص مسألة المرأة . فهي ماركسية أنوثوية . وكما نعلم ، فإن الماركسية لا تخشى النقد ، بل تشجعه وترعاه ، لأنها لا تخشى الحقيقة ، بل إنها وجدت أصلاً للوصول إلى الحقيقة ، وقبل كل شيء الحقيقة العلمية .

أثار هذا الكتاب ضجة في الأوساط الثقافية الألمانية الغربية . فقد صدرت الطبعة الأولى في آذار 1977 بـ 15 ألف نسخة ، وفي الشهر التالي ، أي نيسان 1977 ، صدرت الطبعة الثانية بـ 15 ألف نسخة أخرى . ثم تتابعت طبعات أخرى بفواصل زمنية أطول .

إن فائدة هذا الكتاب الطليعي وأمثاله لا تكمن في قسر نتائجه على الواقع ، إنما في فهم الواقع الاجتماعي والاسترشاد بهذا الفهم على طريق التغيير الذي قد لا يوصلنا إلا بعد أجيال إلى بعض ما نصبو إليه . فثمة قوى كثيرة ومتضاربة تفعل في الواقع ، والتطور ليس رهن إرادتنا ، إنما يمكن بعد فهم الواقع وتبني الفكر المناسب والعمل

بارشاده أن نصبح من ضمن القوة التي تفعل في الواقع باتجاه التقدم . وهذه هي الفائدة العلمية والعملية لهذا الكتاب .

ب . ع
اللاذقية 1 / 12 / 1981 .

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب قبل عشر سنوات في بيروت . ولا تختلف هذه الطبعة عن سابقتها سوى بأن أخطاء الطبع فيها أقل ، لأنني قمت شخصياً بتصحيحها .

ما أريد أن أضيفه هنا ، زيادة على كلمتي للطبعة الأولى ، هو أنني ـ رغم إعجابي بالكتاب ـ لا أوافق المؤلفة على بعض ما كتبته . ففي سبيل الدفاع عن جنسها المظلوم ، وهذا حق لها وحق علينا نحن الرجال ، تخضع شوي بعض المسلّمات إلى النقاش ، وهذا أيضاً ايجابي وتقدمي ، لكنها تحاول من ثم البرهنة على أن « الذكورة » و « الأنوثة » ـ باستثناء الحمل والإنجاب ـ مكتسبتان اجتماعياً ، غير فطريتين . فإذا كان المجتمع الطبقي الرجالي قد ساوى بين الذكورة والسيادة والعمل الاجتماعي وبين الأنوثة والتبعية والعمل المنزلي ، فليس معنى هذا أنه في المجتمع اللا طبقي (عندما تزول علاقة التسلط الجنسانية هذه) لن تكون هناك فروق جنسانية غير الحمل والإنجاب . فهذان بحد ذاتهما كافيان لخلق فروق فيزيولوجية ونفسانية وطباعية وسلوكية طبيعية (تلقائية) ، بغض النظر عن تأثيرات المجتمع . هنا يكمن الخطأ المركزي للحركة الأنوثوية : المساواة بين الجنسين تعني بالنسبة لها مساواة المرأة بالرجل ، وتنسى أن هذا الرجل الذي تريد التساوي به هو ابن النظام الرجالي الذي تحاربه . بذلك فهي تسعى ضمنياً لنقل المرأة من قسر الخضوع للرجل إلى قسر التساوي به (عملياً التشبّه به) . في خضم صراعها مع الرجل ضمن الواقع الطبقي الرجالي الراهن يغيب عن هذه الحركة

الهدف النهائي الحقيقي ، وهو نسف الحضارة الطبقية الرجالية من أساسها وإقامة حضارة إنسانية جديدة ، حيث : العمل المنزلي ، الأمومة ، اللطف والرقة ، العاطفية ، الاهتمام بالأشخاص . . . وما هنالك من صفات تعتبر أنثوية ، قد لا تعني أية دونية ، لأن المعيار لن يكون رجالياً ، بل إنسانياً . وهذا هو رهان البشرية ، وإلا فالرأسمالية الرجالية الغربية ستقودها إلى الفناء .

ب . ع

اللاذقية 9 / 10 / 1992 .

مقدمة

نحن لا نولد بنات (أو صبياناً) ـ إنما يجعلون منا هكذا ! . ماذا يعني هذا ؟ ـ إنه يعني ، أن الأطفال يُدفعون اعتباراً من يومهم الأول بصورة منتظمة إلى دور جنساني(*) ويُمسخون إلى كائن نسميه « أنثى » أو « ذكراً » . هذه السيرورة تحجّم الاثنين ، إلا أن البنت تُحدّ أكثر من الصبي في إمكانياتها الكامنة ، تُنتقص في استقلاليتها ، وتُظلم على صعيد الواقع . لذلك يتناول هذا الكتاب البنات بالدرجة الأولى ـ ويتناول الصبيان فقط بقدر ما المقارنة بين تربية البنات وتربية الصبيان هامة لفهم « التدريب على الأنوثة » .

إن الخصائص الأنثوية ، التي كانت تعتبر أصيلة ، مثل عاطفة الأمومة والعاطفية والاهتمام الاجتماعي والسلبية ، ليست أنثوية بالطبيعة ولا فطرية بل مكتسبة ثقافياً . كيف يحدث هذا عبر تأثيرات مباشرة وغير مباشرة في الأيام والشهور والسنوات الأولى من الحياة ، هذا ما يمكن تبيانه اليوم وبدقة علمية وفي كل مرحلة من مراحل التطور .

يبدأ الأمر مع الرضاعة ، ويستمر عند اللعب ولدى برامج التلفاز للأطفال ـ ببساطة كل شيء يؤول إلى فبركة « الفرق الصغير » ! . النتيجة : النساء والرجال يمشون ويتكلمون ويشعرون ويعملون بصورة مختلفة . إلا أن هذا ليس سبباً ، بل تبعة

(*) نسبة إلى جنس الرجال أو جنس النساء ، للتفريق عن « جنسي » المنسوب إلى النشاط الجنسي . أما الاتجاه الذي يميز بين الجنسين أو بالأحرى ينحاز إلى جنس الذكور ، فسوف ننسب إليه بعبارة « جنسوي » .

ومما يثير المزيد من الاضطراب في مصطلحاتنا العربية المعاصرة استخدام « الجنس » بمعنى النوع ، مثل « الجنس البشري » ، وأن تشتق من نفس الكلمة عبارة « الجنسية » بمعنى التابعية لدولة من الدول ـ ب . ع .

التربية وظروف الحياة الجنسانية .

ولكي أوضح ما أعني ، أود أن أضرب مثلاً : ماني وايرهارد[1] ، عالما جنس اميركيان ، يقصان في كتابهما « ذكري - أنثوي » حياة توأمين ذكرين ، أحدهما احترق قضيبه بالخطأ أثناء « الختان » . على أثر ذلك نصح الأطباء أهله أن يربوا هذا الصبي فاقد القضيب كـ « بنت » . وهكذا لبست « هذه البنت » وعمرها 17 شهراً لأول مرة لباس البنات ، تغيرت تسريحتها وتغير اسمها . بعد أربعة أشهر من ذلك جرى أول تصحيح جراحي لتحويل الأعضاء الجنسية . في نفس الوقت أعلم الأطباء أهل البنت ، الذين ما زالوا في حيرة من أمرهم ، عن إمكانية شق مهبل اصطناعي في فترة المراهقة ومن ثم « تأنيث » الجسم بواسطة المعالجة بالهرمونات الأنثوية .

والآن تبدأ الأم ، وقد حسمت أمرها ، بتربية هذا المخلوق الصغير كبنت . يقول ماني : « عندما رأيناها بعد سنة ، كانت راغبة بالفساتين أكثر من البناطيل ، ومعتزة بشعرها الطويل . ومن يهتم لهندامه يهتم أيضاً بالترتيب . فعندما أصبح عمر البنت أربع سنوات ونصف ، تحدثت الأم عن أن الابنة أكثر ترتيباً من الابن ، وإنها بعكسه لا تريد أن تلوث نفسها[2] . إنها تصير أكثر فأكثر ترتيباً .

« عندما كان عمرها سنتين حاولت ، مثل كثير من البنات ، أن تبول واقفة ، فأوضحت لها الأم ، كيف تذهب البنات الصغيرات إلى المرحاض[3] . كيف تفعل البنات هذا ، وكيف تفعل البنات ذاك . . . كل شيء « يُوضح » للكائن الصغير . بعد قليل بدأت تقلد أمها ، وتدع أخاها يضربها على قفاها ، وتساعد بشطارة في المطبخ . وإذا ما خرجت مرة عن الخط ، يجري إفهامها أن لا تكون بهذه الشراسة . النتيجة : بنت « حقة » .

من هذا المثال نرى كم هو ضئيل دور البيولوجيا . فالناس كائنات اجتماعية ،

1) ماني / ايرهارد : ذكري - أنثوي . نشوء الفروق الجنسانية ، هامبورغ 1975 .
2) نفس المصدر ، ص 119 .
3) نفس المصدر .

بيولوجاهم هي اليوم - بالدرجة الأولى - ذريعة لتعيين هويتهم الجنسانية . فالناس المؤنثون بيولوجياً يُربون كنساء ، والناس المذكرون بيولوجياً يتربون كرجال . هذا في مجتمعنا على الأقل ، أي في المجتمع البطريركي . بالمقابل ، في المجتمع المتريركي (وسوف نتناول هذا الموضوع فيما بعد بالتفصيل) اتخذت النساء لأنفسهن دوراً يعتبر عندنا « ذكرياً » وأعطين للرجال الدور « الأنثوي » : حينذاك كان الرجال سلبيين ، عاطفيين ، مغناجين ومسؤولين عن البيت والأطفال . أما النساء فكن فاعلات ، عدوانيات ، ومسؤولات عن القتال . فما نعتبره اليوم دوراً « ذكرياً » هو دور الجنس المسيطر ، وما نعتبره دوراً « أنثوياً » هو دور الجنس المضطهَد .

كيف يجري فرض هذه الهوية الجنسانية ، هذا ما سوف أوضحه خطوة فخطوة . يبدأ الأمر في رحم الأم . إذا تقلب الجنين بحيوية زائدة ، قيل : « سيكون صبياً » . وكذا الأمر في الرضاعة . فالأمهات يرضعن البنات بشكل مغاير لإرضاع الصبيان : على البنات الصغيرات أن يتناولن الحليب أسرع من الصبيان ، وفي المتوسط يُفطمن أبكر من الصبيان بثلاثة أشهر . هنا تقبل الأم بصورة لا شعورية بسلطة واستقلالية الرجل الصغير ، تترك له الإيقاع الطبيعي لرضاعته - بينما تقطع على البنت إيقاع رضاعتها ، ولا تبدي استعداداً لمسايرتها ، بل تخضعها لإرادة غريبة .

يبدو كلامنا جزافياً ، لكنه حقيقة مختبرة علمياً . والأمور تتابع مجراها بتأثيرات واعية أو لا شعورية ، تصب جميعاً في نفس المجرى الواحد : إن التأثيرات الأساسية لتطور الطفل في كل مرحلة من مراحل التطور تصيب الصبيان بصورة كافية أكثر مما تصيب البنات . فالبنات يلقين إهمالاً شديداً في جميع المجالات الهامة ، يلقين تشجيعاً أقل ، وإن وجد التشجيع ، فيكون موجهاً نحو « أنوثتهن » القادمة ، ليس إلا . وهذا ما يخلّف أضراراً خطيرة وتشويهات . ذلك لأن الطفل لا يتطور بنفسه ، « من ذاته » ، بل يعتمد على التشجيع والتحفيز - وإلا فإنه يُعاق (يتضح ذلك من أمثلة « أطفال الذئاب » أو « كاسبر هاوزر ») . فالاحتكاكات بالبشرة والملامسات والحركات ذات أهمّية فائقة بالنسبة للمواليد الجدد . غير أن البنات في هذه السن يلقين من الملامسات

والمداعبات والأخذ بالأحضان أقل من الصبيان . كذلك يلقى النشاط العضلي لدى المواليد الذكور دعماً أشد ـ بذلك توضع منذ هذه الأسابيع الأولى حجر الأساس لدونية المرأة جسدياً .

في الأشهر التالية يوجه البنات والصبيان بصورة منهجية عبر مثيرات سمعية وبصرية مختلفة نحو اهتمامات مختلفة : النتيجة الفورية هي أن البنات الصغيرات ، ومنذ الشهر السادس من عمرهن ، يتفرجن زمناً أطول على صور للبشر ، بينما يتفرج الصبيان زمناً أطول على صور الأشياء . هذا ليس بحال فطرياً ، بل قد اكتُسب الآن . إذ ذاك ربما تحدث أكثر الأشياء لا شعورياً . فالأمهات والآباء يعيدون هنا إنتاج الأدوار التي قسروا عليها ، فيظهرون للصبي الصغير إجلال الجنس الأقوى ، وللبنت احتقار الجنس الأضعف . سيفاجأ الآباء والأمهات والمربون ، عند قراءة هذا الكتاب . حتى أولئك الذين يعتبرون أنفسهم تقدميين والذين اعتقدوا حتى الآن أنهم يربون أطفالهم بـ « المساواة » ، سوف يذهلون ، إذ يرون إلى أي حد ، هم أنفسهم أدوات للتربية على السلطة الذكرية والخضوع الأنثوي .

ومما يثير الاهتمام أن أبحاثاً أميركية (وما تزال الأبحاث الألمانية غير متوفرة في هذا الميدان) أشارت إلى أن الآباء ـ على النقيض مما كان يظنه المرء حتى الآن ـ أكثر محافظة من الأمهات فيما يخص التربية على « الأدوار الجنسانية » . إنهم يصرون على تنشئة « البنت الأصيلة » و « الصبي الأصيل » . ولا شيء يبدو لهم أكثر كراهية من الصبي « المؤنث » ـ وهم أقرب إلى أن يغفروا للبنت أحياناً بعض « الذكورة » . فكم هو على العموم ذو دلالة أن يسمح أحياناً للبنت بالصعود الاستثنائي ، أي السماح بالسلوك « الذكري » ، بينما يحظر على الصبيان السقوط ، أي السلوك « الأنثوي » . ذلك لأن الدور الذكري هو المعيار ، والدور الأنثوي يقاس دائماً به . فليس صحيحاً إذن « أن الدور الأنثوي مغاير للدور الذكري ، ولكنه مساو له » ، بل هو بالفعل أقل قيمة ! والتربية على الأنوثة تعني التربية على الخضوع ، على تقسيم العمل الذكري / الأنثوي ، على العمل خارج / داخل البيت ، على العقلانية / العاطفية ، على الإبداع /

التقليد .

سوف أقتصر في هذا الكتاب على كشف القسر الخارجي ، فأستبعد عملية استبطان هذا القسر للدور الجنساني ، باعتبار أن الموضوع يخرج عن إطار هذه الدراسة . وعلى كل ، لو لم أستبعد هذا الموضوع ، لتوجب عليّ بالضرورة أن أحلل بصورة شاملة التأثير المتبادل بين الخضوع الأنثوي المستبطن والسيطرة الذكورية المستبطنة .

ومما له دلالة ، أن جميع القدرات « الأنثوية » المميزة في أوائل السنوات الأولى من العمر ـ أي القدرات التي يجري تشجيعها لدى البنات الصغيرات ـ تخدم بصورة مباشرة تخفيف عبء العمل عن الكبار . وهكذا تصبح البنات نظيفات أبكر من الصبيان ، يلبسن ثيابهن لوحدهن أبكر ، يُدفعن منذ سن الروضة لخدمة الآباء والأخوة . إن عمل البنات يأخذ حجماً أكبر مما كان يظن حتى الآن . وهذا الموضوع لوحده يستحق دراسة متعمقة .

وعلى هذا فإنه ليس مستغرباً ، أن البنات الصغيرات كثيراً ما يتمنين أن يكن صبياناً ، وأن القبول بالدور الجنساني الأنثوي لا يحدث عموماً دون مقاومة ، فهو على النقيض من الدور الذكري لا يمتلك أية قوة جذب إيجابية . إن قبول دور (واقع) يحتوي على خنوع واضطهاد واستغلال ، لا يمكن أن يكون إلا قسرياً .

وتتمثل ذروة الاستغلال المنظم لـ « الأنوثة » في أن النساء ، في ألمانيا الغربية مثلاً ، ينجزن ثلثي العمل اللازم اجتماعياً (ثلث العمل المأجور وتقريباً كل العمل غير المأجور في التدبير المنزلي وتربية الأطفال) . وهن يعملن ، ليس أكثر من الرجال فحسب ، بل أيضاً في ظروف سيئة . « فالقدرات الأنثوية » تؤهلهن لتحمل الرتابة (المطبخ وشريط الإنتاج الآلي) وللخدمة (كزوجة وسكرتيرة) وللتضحية (كأم وممرضة) . هنا تُغلق الدائرة : إننا نرى أن التربية على الأنوثة ليست مصادفة ، بل تخدم المزيد من الاضطهاد والاستغلال للنساء في مجتمع الرجال .

لذلك فإن علم النفس ، الذي يسيطر عليه الرجال ، ـ بورجوازياً كان أم اشتراكياً ـ لا يمكن أن يهتم بتحليل متساوق منطقياً للتربية الجنسانية أثناء الطفولة المبكرة . أنا شخصياً أنتمي إلى مجموعة من النفسانيات في برلين ، اللواتي يزداد تحسسهن من خلال تجاربهن الشخصية وعملهن في الحركة النسائية ويطرحن على أنفسهن المزيد من الأسئلة . وبالرغم من أنه يوجد في علم النفس جميع هذه المعلومات الميدانية ، التي قمت باستثمارها لا حقاً ، فإن هذه هي الدراسة الأولى حول الإجحاف الذي يلحق بالبنات في سنوات العمر الأولى .

وعلم النفس الذي يعتبر نفسه « تقدمياً » و « اشتراكياً » اكتفى هو الآخر حتى الآن بتحديد الفروق المتواجدة فعلاً بين البنات والصبيان بعد الشهور الأولى من الولادة . من ثم يجري ببساطة إعلان هذه الفروق سبباً ل « الأنوثة » و « الذكورة » ـ بدلاً من فهمها كنتيجة للتربية والتوجيه المختلفين باختلاف الجنس . في حين أننا ، إذا كنا مقتنعين ، بأن البشر كائنات اجتماعية ، أي نواتج لتأثيرات المحيط وشروط الحياة ،ملزمين عندئذٍ بأن نتقصى باتساق منطقي صحة مزاعم الأنوثة والذكورة « الطبيعية » . والاتساق المنطقي يعني في هذه الحالة : العودة إلى المهد ، لكي نبحث ، ما هو فطري وما هو مكتسب .

قبل أن أقوم بالتحليل الملموس لمختلف مراحل الحياة ومختلف التأثيرات على البنات والصبيان ، سوف أقدم شرحاً لطريقة بحثي ونقداً لما تقدم من النظريات والممارسات الماركسية في مجال تحرر النساء . ولقد قمت لسنوات طويلة بالتعليم والبحث كمعيدة في معهد ذي اتجاه ماركسي تابع للجامعة الحرة ببرلين . لذلك فإني ألفت الجدال مع الماركسيين الذي يزعمون أنهم قد وجدوا الحل لهذه المسألة ، والذين يحاولون عن طريق شعار « التناقض الرئيسي » (التناقض الطبقي) و « التناقض الثانوي » (التناقض بين الجنسين) إعاقة التحليل الجذري للتناقض بين الجنسين . والقراء والقارئات غير المطلعين على هذا الإشكال ، أنصحهم بأن يبدأوا بالفصل الثالث (تطور الشخصية في جانبها الجنساني) ، وأن يقرأوا من ثم الفصلين النظريين

السابقين .

آمل أن تسفر عن هذا الكتاب تبعات نظرية وعملية : خطوات مقنعة هنا واليوم بالنسبة للمربين (المربيات) والعلماء (العالمات) ، الذين ما عادوا يستطيعون إغلاق أعينهم عن الجريمة التي تُرتكب بحق البنات باسم « الأنوثة » .

اورزولا شوي

برلين ، كانون الثاني 1977

مدخل

إن الفروق القائمة اليوم بين النساء والرجال ـ نفسياً وفيزيولوجياً ـ مرهونة كلياً بالمجتمع (باستثناء وحيد هي تلك الفروق البيولوجية المرتبطة بوظيفة الحبل والإنجاب ، أي الفرق التشريحي في الأعضاء الجنسية ، وكذلك الفرق الهرموني والصبغي)(*). وكل شيء مشتق من ذلك هو نتيجة التقسيم الجنساني للعمل ، نتيجة سيادة الرجال على النساء في مجتمعنا . وهذه العلاقات الاجتماعية الجنسانية يعاد إنتاجها في عملية الجمعنة الجنسانية . لكن كيف يحدث هذا بالضبط ، عبر أية أواليات وبأية أهداف ملموسة ، هذا ما سوف أبحثه في هذا الكتاب .

إن ما تسمى طبيعة « أنثوية » و « ذكرية » كانت وما تزال تخدم لاضفاء الشرعية على استمرار سيادة الرجال على النساء وتُتخذ ذريعة لتوزيع العمل تبعاً للجنس . هذا يعني : مسؤولية النساء وحدهن فيما يخص العمل في حقل إعادة الإنتاج(**) وحصرهن في أعمال « نسوية الطابع » في حقل الإنتاج الاجتماعي (أشكال « أنثوية » الطابع ، سيئة الأجر ، في النهاية الدنيا من التراتب) . وتُتخذ من ناحية أخرى ذريعة لتحرر الرجال من العمل في مجال إعادة الإنتاج ولدمجهم تماماً في عملية الإنتاج (بأجر أفضل وفي مرتبة أعلى من مرتبة النساء) .

يقال ، إن النساء أكثر عاطفية واجتماعية ، وهذا ما يؤهلهن بصورة ممتازة لتربية الأطفال ولخدمة الرجال والأطفال ، في حقل إعادة الإنتاج كما في حقل الإنتاج . هذا

---

*) الصبغي = الكروموزومي . ـ ب . ع .

**) إعادة الإنتاج هنا تعني إعادة الإنتاج من حمل وولادة وتربية أطفال وأعمال بيتية غير تجارية ، أما الإنتاج فيعني الإنتاج الاجتماعي . ـ ب . ع .

صحيح . غير أنهن لم يلدن هكذا ، بل جُعلن . كذلك تعتبر النساء سلبيات وأقل عقلانية ، وهذا في مجتمع تزن الفاعلية فيه أكثر من السلبية ، ويزن العقل أكثر من العواطف . هذا يعني في الواقع ، أنهن مقودات ومدارات من قبل من هم أكثر عقلانية وأكثر فاعلية (الرجال) . وتعتبر النساء غير مستقلات وقليلات الإبداع ، ولذلك يظهرن ملائمات بصورة خاصة للأشغال الروتينية والرتيبة في حقل إعادة الإنتاج كما في حقل الإنتاج .

نتيجة هذا التقسيم للعمل تبعاً للجنس تملك النساء اليوم من القوة والمرونة الجسدية أقل من الرجال ، وهذا ما يتخذ مرة أخرى ذريعة لتقسيم العمل حسب الجنس (حتى في تلك الأماكن ، التي ـ بدخول المكننة ـ لم تعد في مهن معينة تحتاج اليوم إلى القوة العضلية) . كذلك تعتبر النساء غير جازمات ، وضعيفات في القيادة ، وهذا ما يحرمهن من المناصب القيادية والمقررة . ويمكن أن نتابع هذه القائمة إلى ما لا نهاية ، على أنها تشير منذ الآن إلى أن الخصائص والقدارت « الأنثوية » ليست مغايرة في نوعها فحسب ، بل أيضاً متدنية القيمة في المعايير الدارجة .

والآن ، ما هو الفطري في هذه الخصائص « الأنثوية » ؟ . لقد أثبت علم النفس التجريبي أن أكثر هذه الخصائص ـ مثلاً : أقل عدوانية ، أقل اهتماماً بالأشياء التقنية ، أكثر سلبية ، أقل استقلالاً ، أقل إبداعاً ، أقل طموحاً الخ . ـ سببها اجتماعي . كما بين عبر أية أواليات تنتج هذه الخصائص في عملية الجمعنة[1] . وعلى كل فمن المثير

---

1 ـ دانهاور : الجنس والشخصية ، برلين 1973 .

و . لير : مشكلة جمعنة أنماط السلوك الجنسانية ، في : موسوعة علم النفس الاجتماعي ، 1972 ، ص 886 ـ 954 .

Garai and Scheinfeld: Sex differnces in mental and behavioral traits. in: Genet Psychol. Monogr. 1968 – 77.S.169–299.

Kagan.J.: Acquisitions and significance of Sex Typing and Sex Role Identiy.in: Hoffmann Review of Child Development Research. New york 1964.Bd.1.P.137–168.

Macoby. E.E: The Development of Sex Differences.Stanford 1966.

للانتباه ، أن أكثر مجالات الحياة قد استقصيت (مثلاً كيف أن البنات الصغيرات يُدرّبن على مهارة يدوية وحذاقة عالية الخ . تُوظف وتُستغل فيما بعد في تدبير المنزل وفي العمل المهني) ، لكن مجالاً واحداً بقي مستبعداً كلياً : النشاط الجنسي . نحن نعلم حقاً أن النساء والرجال يسلكون هنا أيضاً سلوكاً مختلفاً ، لكننا ما زلنا نعتبر ذلك « طبيعياً » . بينما هنا بالضبط تجد الجمعنة المميزة جنسانياً ، وتجد السلبية الأنثوية والخضوع الأنثوي والحيوية الذكرية والتسلط الذكري ، تجد تعابيرها الأكثر مباشرة . فالعلم لا يسأل ، كيف يصاغ السلوك الجنساني في النشاط الجنسي ، وبهذا يوحي بأن السلوك الجنسي الحالي هو السلوك الطبيعي .

إذن فبالرغم من أن علم النفس التجريبي برهن على أن الكثير من الخصائص سببها المجتمع ، فما تزال إلى الآن النواة التي تتكون منها الطبيعة « الأنثوية » و « الذكرية » غير ممسوسة : العاطفية الزائدة لدى النساء ، سلوكهن الأكثر اجتماعية واهتمامهن الزائد بالأشخاص وتدني قدرتهن الجسدية . هذه الفروق « الطبيعية » هي التي تحتوي على التبعات الحاسمة ، هذا يعني أنها تؤخذ لتبرير خصّ النساء بتربية الأطفال وتدبير المنزل و « الأعمال النسائية الصميمة » .

ومما يثير الانتباه أنه لم يجر أبداً بصورة جذرية تقصي ما إذا كانت بالذات هذه الخصائص والقدرات ذات الطابع « الأنثوي » تعود إلى أسباب اجتماعية . حقاً ، إنها لحقيقة واقعة ، أنه يمكن منذ الشهور الأولى من العمر تسجيل « علامات » أولى لهذا الفرق ، المتعاظم فيما بعد ، بين النساء والرجال . وعلم النفس التجريبي رجع في السنوات الأخيرة إلى بحث الفروق بين الجنسين في المرحلة المبكرة من سن الروضة ، وبرهن على أن أغلب الفروق هي اجتماعية المنشأ . يبدو هذا كأنه تقدم جوهري تجاه الأبحاث السابقة . لكن المظهر يخدع . فالأبحاث في مراحل الحياة المبكرة فالأبكر تساهم بالذات في حجب أسباب الفروق بين ا لجنسين ، إذ أن علم النفس يزعم بناء

Mischel.W.: Sex-Typing and Socialization, in: Mussen.P.H: Manual of Child Psychology, Vol.2,New york 1970,P.3-72.

على النتائج المستقاة من هذه الأبحاث ، أنه قد تقصى كل شيء ، ويدعي : مع ذلك هناك فرق[2] . ومن هذا الفرق يجري اشتقاق المميزات الخاصة بكل من الجنسين .

غير أنه يمكن أيضاً تفسير هذا الفرق المُثبت في سن مبكرة تفسيراً مغايراً . فالبحث ، الذي يفتش في هذه السن عن الأسباب ، عليه أن يرجع أكثر إلى الوراء ويفحص ما هو حقاً فطري وما هو اجتماعي . بيد أن هذا لم يحدث حتى اليوم إلا عرضياً ، ولم يحدث بشكل منهجي البتة . فما زالت الأسباب والنتائج تختلط ويجري اظهار تبعات التربية الجنسانية الطابع على أنها سبب هذه التربية . ذلك لأن علم النفس ، البورجوازي والاشتراكي على حد سواء ، لا ينطلق في دراساته الميدانية لهذه المشكلة من لحظة الولادة ، بل بعد ذلك بأسابيع أو شهور . وهكذا غالباً ما تفسر الفروق بين الجنسين ، التي أثبتتها هذه الدراسات بعد الأسابيع الأولى من العمر ، على أنها فطرية ، لا مكتسبة . لهذا يجب أن يركز أي بحث يتقصى نشوء الفروق بين الجنسين ، على أوائل الأسابيع والشهور الأولى من عمر البنت أو الصبي . وهذه هي النقطة المركزية في كتابي . ذلك لأن الجهل بما يحدث في هذه الفترة الزمنية هو بالذات ما سوف يسمح باستمرار انتشار اديولوجيا الفرق « الطبيعي » بين النساء والرجال . وهذا ما سوف يخدم من ثم بدوره الحفاظ على تقسيم العمل جنسانياً وبالتالي الحفاظ على سيادة الرجل على المرأة .

وحتى الأبحاث القليلة في مجال الاشراط في الطفولة الباكرة ، أي بحث الجمعنة بدءاً من الولادة (بعيد الولادة ، في سن الرضاعة) ما تزال حتى الآن مهملة إهمالاً كاملاً تقريباً . وسيكون مهولاً ، لو أمكن إثبات أنه هنا قبل كل شيء توضع التحويلات للتفريق بين « المؤنث » و « المذكر » . « لا يأتي المرء إلى العالم كامرأة ، بل يجعلون منه هكذا »[3] ، هذا ما كتبته سيمون دوبوفوار قبل 25 سنة في « الجنس الآخر » . اليوم

2) مثلاً لدى غاراي وشاينفلد (1968) وغيرهما.

3) سيمون دو بوفوار : الجنس الآخر ـ العادات والجنس عند المرأة ، راينبك / هامبورغ 1973 . (الكتاب مترجم إلى العربية ـ ب . ع) .

تكشف الأبحاث بصورة متزايدة ، كيف يمسخ الأطفال منذ اليوم الأول لولادتهم ، ساعة فساعة ، يوماً بعد يوم ، إلى بنات وصبيان (مع تبعات مختلفة ، بطبيعة الحال ، بالنسبة للبنات والصبيان) ، كيف يجري تشجيع أو لجم قدراتهم واهتماماتهم وخصائصهم تبعاً لجنسهم ، كيف يجري فرضها أو القضاء عليها . وهذا الوضع يستمر في مراحل الحضانة والروضة والمدرسة وفي سن البلوغ . هذا يعني أن تقلد الدور الجنساني ليس حدثاً يقع دفعة واحدة . في الحقيقة ، حتى وقت معين يكون تقليد الدور قد تم نسبياً . ولكن في كل مرحلة من مراحل العمر وفي كل ظرف من ظروف الحياة يجري ترسيخه وفرضه من جديد .

وطالما أننا لم نتبين ذلك بصورة شاملة ولم نحلله جذرياً ، فسنكون دائماً من جديد ضحايا اديولوجيا الفرق بين الجنسين (وتبعاتها) ، هذه الاديولوجيا التي تبرر اضطهاد الجنس « الأضعف » من قبل الجنس « الأقوى » . وعندما يكون علم النفس السائد أداة للسائدين (للرأسمال وللبطريركية) ، يستخدم لحجب البنى التسلطية ، يتوجب علينا عندئذٍ أن نتقصى جذرياً مقولته حول الفروق بين الجنسين . ذلك لأن وظيفة علم النفس في الوقت الحاضر تنحصر غالباً في تمويه التوزيع الواضح جداً للأدوار بين الجنسين عن طريق إدخال مقولات غامضة . وبالتحديد في مرحلة الطفولة الباكرة يجري بالنسبة للجانب الجنساني الخلط بين السبب والنتيجة ، فتعرض تبعات التشويه الجنساني على أنها سبب تقسيم العمل والتسلط بين الجنسين .

هذا الكتاب يُعنى في المقام الأول بنشوء الخصائص والقدرات المميزة جنسانياً وأواليات نشوئها في الأسابيع والشهور الأولى من العمر . وتصل المرحلة الموضوعة للبحث من قبلي حتى سن الخامسة أو السادسة ،أي حتى بداية الجمعنة المدرسية . وسوف أبين ، في عرض متسلسل زمنياً للتأثيرات الأساسية التي يخضع لها البنات والصبيان ، عبر أية أواليات يجري إنتاج وتوسيع وترسيخ الفروق المركزية بين الجنسين

ومما يخلق إشكالاً أنه ليس هناك إلا القليل من المعلومات الميدانية عن مقاطع معينة من العمر . وهذا يسري خاصة على السن ما بين السنة الأولى والثالثة . والتفسير

الممكن لذلك هو أن الرضّع في السنة الأولى للعمر تُجمع المعلومات عنهم على المستوى المؤسساتي ، مثلاً المستوى الطبي ، ومع بداية السنة الثانية يغيبون عن المسرح الاجتماعي ،ولا يظهرون بعدئذ حتى سن المدرسة ، حيث يصبحون هامين اجتماعياً ، فتجمع المعلومات عنهم . فيما بين هاتين المرحلتين من العمر يعيش الطفل حصراً تقريباً ضمن المحيط العائلي .

وتتأتى مشاكل أخرى عن أن أكثر الأبحاث لم تنجز في ألمانيا الغربية ، بل في ألمانيا الديمقراطية وايطاليا والولايات المتحدة وفرنسا والسويد وغيرها . وبعض المعطيات الأساسية تأتت عن أبحاث استهدفت مبدئياً مشاكل مغايرة لموضوعنا ، فهي إذن أقرب ما تكون إلى « سقط المتاع » . غير أن هذه النتائج واضحة بشكل يجعلها أكثر من مجرد إشارات لتفسيرات ممكنة . إنما بالتأكيد ثمة حاجة في نقاط كثيرة إلى متابعة البحث الدقيق وتمحيص النتائج المتوفرة .

لقد استخدمت موضوعة التطور في نظرية الشخصية الاشتراكية كأداة لتحليل ومنهجة مختلف مواد البحث . وسوف أعرض هذه الموضوعة مفصلاً ، لأنها لا تزال حتى الآن واحداً من التصورات القليلة التي تحاول تفسير التطور المتميز للبشر باعتباره متعلقاً بالعلاقات الاجتماعية (ثمة تعليل مفصّل في المكان المناسب من الكتاب) . ومع ذلك فهذا الموديل يتجاهل حتى الآن مشكلة العلاقات الاجتماعية الجنسانية . وسوف أبين فيما بعد أسباب هذا التجاهل . على أية حال يسمح منطلق التفسير هذا بفهم أهمية العلاقات الجنسانية كسبب لتطور الشخصية « أنثوياً » أو « ذكرياً » .

قبل تناول الموضوع المركزي لهذا البحث سوف أعرض التعليل النظري لمنطلقي ، أي الاشتقاق النظري للفروق الملموسة من العلاقات التاريخية الملموسة بين الجنسين ، من الشكل الملموس لتقسيم العمل بين النساء والرجال في مجتمعنا والشكل الملموس لسيادة الرجال على النساء .

وسوف أقوم بهذا مع مناقشة نقدية للنواقص والأخطاء المميزة التي يتضمنها المنطلق الاشتراكي الكلاسيكي في مسألة المرأة . وذلك استناداً إلى أحدث نتائج

الأبحاث في مختلف الفروع العلمية مثل الأنتروبولوجيا والأتنولوجيا والأرشيولوجيا(*) وعلم التاريخ . إنني أقوم بمحاولة الانطلاق من منطلق مستجد ومادي متشدد من أجل تعليل مكانة الجنسين . أما المنظرون الاشتراكيون المحدثون ، الذي يهتمون بمسألة المرأة ، فهم يكررون التحليلات الكلاسيكية بصورة دغمائية ولا يمحصون ما يمكن تمحيصه اليوم . لذلك تنعكس الأخطاء القاتلة للمنظرين الكلاسيكيين في استراتيجيا خاطئة لتحرير النساء .

أحد نواقص هذا الكتاب أصبح الآن واضحاً : إن استراتيجة تحرير النساء يجب أن تشتمل على مجموع العلاقات الاجتماعية التي تحدد مكانة النساء . هذا يعني ، أنها يجب أن تشمل العلاقات ذات الطابع الطبقي وكذلك العلاقات ذات الطابع الجنساني ، يجب أن تحاول تحديد الصلة ما بين هذين العنصرين في اضطهاد النساء ، في صيغتها الملموسة . غير أن هذا مستحيل بالنظر للمستوى الحالي في العلوم والأبحاث . حقاً ، هناك عدة منطلقات حللت(4) الجانب الطبقي وإعادة إنتاجه في عملية الجمعنة . غير أن الجانب الجنساني جرى إهماله تماماً حتى الآن . وهذا التحليل الوحيد الجانب قاد إلى تقديرات واستراتيجيات متسرعة وخاطئة ، لأنها منقوصة . إنه لمن الواضح أن استغلال واضطهاد جنس النساء لا يمكن أبداً رصده عن طريق تحليل اضطهادهن الطبقي . كما أنه لا يمكن بأي حال القيام بعملية جمع حسابية للعنصرين . والصحيح هو رصد صلتهما وتفاعلهما الخصوصيين في مجتمعنا .

إن النساء في الوقت الحاضر ، بغض النظر عن طبقاتهن ، يخضعن لعلاقات

---

*) الانتروبولوجيا : علم يهتم بنشوء وتطور الإنسان والشعوب وحضاراتها.

الاتنولوجيا : علم يقوم بأبحاث مقارنة حول حضارات مختلف الشعوب حسب انتشارها المكاني وتطورها الزماني وعلاقاتها الداخلية والخارجية.

الأرشيولوجيا : علم الآثار القديمة . - ب ع .

4) انجلز ، بيبل ، زيتكين ، فيتفوغل ، تونيسين ، منشيك وغيرهم .

استغلال وتسلط نوعيين . وفي دراستي هذه سوف استبعد الجانب الطبقي لذاته ، رغم معرفتي ، بأن هذا ليس ممكناً في الحقيقة ، لأن الجانب الطبقي متشابك مع الجانب الجنساني . ولا يمكن رصد أنماط هذا التشابك عن كثب إلا إذا وجد إلى جانب التحليل الطبقي المتوفر تحليل للعلاقات الاجتماعية ذات الطابع الجنساني . وكتابي هذا يهدف إلى أن يكون خطوة على هذه الطريق .

الفصل الأول

تقسيم العمل بين النساء والرجال
نقد التحليلات البورجوازية والماركسية

آ ـ نشاط المرأة في حقلي الإنتاج وإعادة الإنتاج

لخصت عالمة الاجتماع الفرنسية الأنوثوية(*)أندريه ميشيل أبحاثها الميدانية بالقول : « لم تكن النساء مستغلة قط كما هي في الرأسمالية المتأخرة[1] . ففي جمهورية ألمانيا الاتحادية يبلغ عدد ساعات العمل المجانية التي تقدمها النساء سنوياً في تدبير المنزل وتربية الأطفال 45 ـ 50 مليار ساعة ، ويبلغ عدد ساعات العمل المأجورة سنوياً 52 مليار[2] . إن العمل المجاني في حقل إعادة الإنتاج تنجزه النساء لوحدهن تقريباً ، وينجزن ثلث العمل المأجور في حقل الإنتاج . هذا يعني ، كما كتبت إليس شفارتسر ، « أن النساء يقمن بثلثي مجمل العمل المنجز اجتماعياً ، ويقوم الرجال بالثلث »[3] . بالرغم من ذلك تحوز النساء في مجتمعنا على منزلة متدنية عن منزلة الرجال . ولا يغيّر من هذه الحقيقة الواقعة أن النساء ينجزن منذ مئة عام تقريباً هذا الثلث من العمل المعترف به اجتماعياً في حقل الإنتاج . ذلك لأن كسب النساء ليس له أهمية كسب

---

*) الأنوثوية مذهب يقول بالمساواة بين الجنسين في جميع مجالات الحياة الفردية والاجتماعية . ـ ب ع .

1) أ . ميشيل ، استشهاد مأخوذ عن شفارتسر : الفرق الصغير وتبعاته الكبيرة ، فرانكفورت أم ماين ، فيشر 1975 .

2) الجمعية الألمانية للتغذية ، فرانكفورت أم ماين 1973 .

3) شفارتسر (1975) ، ص 211 .

الرجال . أولاً ، لا تعفى النساء المشتغلات من تدبير المنزل وتربية الأطفال ، بل يقمن بهما بالإضافة إلى عملهن خارج البيت . ثانياً ، تقريباً جميع الأعمال المقرَّة للنساء في حقل الإنتاج هي أعمال « أنثوية » الطابع . هذا لا يعني فقط أن هذه الأعمال تنال أسوأ الأجور وأنها مصنَّفة في الدرجة الدنيا من سلم الأعمال ، بل يعني أيضاً أن « أنشطة النساء » الصميمة ، التي تعمل فيها الأكثرية العظمى من النساء المشتغلات ، تستغل كفاءات أنثوية ملقنة لهذا الغرض (ممرضات ، سكرتيرات ، بائعات ، عاملات على شريط الإنتاج الآلي ،معلمات) . إذن ، فكسب العيش يعني بالنسبة للنساء في الوقت الحاضر : المسؤولية الكاملة في حقل إعادة الإنتاج الخاص بالإضافة إلى القيام بنشاطات « أنثوية » في حقل الإنتاج الاجتماعي !

حتى الآن لم يقد توسع عمل المرأة الاجتماعي بأي حال إلى جمعنة حقل إعادة الإنتاج ، كما ظن انغلز وغيره من المنظرين الاشتراكيين (« إن تحرير المرأة غير ممكن إلا عندما تستطيع المشاركة في الإنتاج على نطاق اجتماعي واسع ، ولا يعود يشغلها العمل المنزلي إلا على نطاق ضيق . وهذا لم يصبح ممكناً إلا بفضل الصناعة الكبيرة التي لا تسمح بعمل النساء بصورة متصاعدة فحسب ، بل تتطلبه تحديداً ، والتي تسعى أيضاً إلى امتصاص العمل المنزلي الخاص أكثر فأكثر في الصناعة الوطنية »[4]) .

إن كسب العيش ضروري من أجل استقلال المرأة نسبياً عن الرجل وبالتالي فهو شرط لا غنى عنه لتحرير المرأة[5] . غير أن هذا لا يعني ـ كما رأت كلارا زيتكين ـ تغييراً بسيطاً للمشهد : « تحولت من عبدة للزوج إلى عبدة لرب العمل : بدلت السيد فقط »[6] . بكسب العيش تخضع المرأة لاستغلال إضافي من قبل رب العمل ، لكنها في

4)انجلز ، الأعمال الكاملة ، المجلد 21 ، ص 158 .

5) أ . ميشيل

A.Michel: Activit'e Professionelle de la Femme et Vie conjugale.1974.

هذه الدراسة تقدم نظرة عامة جيدة جداً على تأثيرات النشاط المهني للمرأة في الزواج والأسرة .

6) كلارا زيتكين : أحاديث وكتابات مختارة ، المجلد الأول ، برلين 1957 ، ص 7 .

الوقت ذاته تبقى عبدة الزوج ، فبدلاً من سيد واحد يصبح لها سيدان .

على هذا لا تقود ، على الاطلاق ، مشاركة النساء في عملية الإنتاج الاجتماعي تلقائياً إلى رفع منزلتها الوضيعة ، لا تقود إلى ذلك حتى لو أدت المشاركة إلى جمعنة جزئية لوظيفة التدبير المنزلي وتنشئة الأطفال ، كما هي الحال في بعض البلدان الاشتراكية وكذلك جزئياً في البلدان الرأسمالية (حيث لا تعود عندئذ هذه الوظيفة فردية ، بل مهمة جماعية للنساء) . وذلك لما يلي :

1 ـ طالما أن العمل المنزلي وتنشئة الأطفال غير المجمعنين تقوم بعبئهما النساء كمسؤولات رئيسيات ، فإنه لا يمكن التحدث عن تساوي منزلة الجنسين .

2 ـ طالما أن جمعنة الأعمال المنزلية والتربوية تعني فقط إزاحة نشاطات مخصصة لجنس النساء من حقل إعادة الإنتاج إلى حقل الإنتاج ، فإن التقسيم الجنساني للعمل سيبقى دائماً .

3 ـ طالما بقي تقسيم العمل جنسانياً وبالتالي بقيت سيادة الرجال على النساء قائمة ، فلا يمكن وجود المساواة بين منزلتي الجنسين . وطيلة ذلك سينقسم الأطفال في عملية الجمعنة دائماً من جديد إلى « نساء » و« رجال » ، وسيعاد إنتاج علاقات التسلط القائمة .

إن القضاء التام على التقسيم الجنساني للعمل هو إحدى المقدمات الرئيسية لتحرير النساء .

ب ـ الطابع الخاص لتقسيم العمل بين الجنسين .

« بنظرة متفحصة نجد أن مفهوم تقسيم العمل بين الجنسين غير كاف للتعبير عن الظرف الذي يتواجد فيه الرجل والمرأة بالنسبة لعملهما ، وهو يحجب الحقيقة ، حيث أن الأمر لا يتعلق بتقسيم متساو للعمل (كما هو الحال ما بين السكاف والنجار مثلاً) ، بل يتعلق بتوزيع وظيفي متضمن لعلاقة سلطوية معينة . إن تقسيم العمل بين الجنسين هو تقسيم خاص من نوعه ، من حيث أنه يفترض وجود علاقة سلطوية اجتماعية معينة

بين المرأة والرجل . وطالما بقي هذا النمط من تقسيم العمل قائماً ، فإنه سيعيد إنتاج هذه العلاقة السلطوية دائماً من جديد »[7] .

تعرّف رناته شتيفان[8] هذا الطابع الخاص لتقسيم العمل بين الجنسين على أنه يتحدد بعاملين اثنين :

1 ـ يتضمن التقسيم الخاص للعمل بين الجنسين قبل كل شيء تبعية المرأة اقتصادياً للرجل . فالرجل هو المسؤول الرئيسي عن العمل خارج البيت لكسب المواد الضرورية للمعيشة « وبالتالي بيده تأمين كامل الأسرة اقتصادياً . . . » .

2 ـ « تجري الأعمال التي يقوم بها المرأة والرجل في مجالين منفصلين عن بعضهما تماماً » . تقوم المرأة بالعمل في المجال الخاص بالأسرة ، فلا يكون عملها مرئياً بصورة ملموسة إلا من قبل أفراد الأسرة . « ومع أن هذه الأعمال لا غنى عنها لبقاء أي مجتمع ، فإن مجتمعنا لا يعترف بها ، لا يؤدي عنها أجراً ، بل إنه في الحقيقة يتجاهلها » . وبسبب مسؤولية المرأة في « المجال الخاص » ، فإنها تُستبعد إلى حد بعيد من المجال العام ، أي المجال الخارج عن المنزل ، الذي يختص به الرجال . وهكذا فإن الرجل يقوم كذلك عملياً بالنيابة عن المرأة « بالتعامل مع هذا المجال العام » و « يرسخ بذلك تبعيتها له من هذه الزاوية أيضاً »[9] .

هذه التحديدات العامة بتقسيم العمل بين الجنسين ، أو بالأحرى لهذا الطابع الخاص من تقسيم العمل بين الجنسين ، تنسحب أيضاً على حقل الإنتاج . إن الطابع الخاص لتقسيم العمل بين الجنسين يتطلب جمعنة جنسانية ، وهذه بدورها تعيد إنتاج التقسيم الجنساني للعمل . فهي تخلق المقدمات لممارسة النشاطات والوظائف

---

7) ر . شتيفان : مدبرات المنزل والأمهات ، العبدات المنسيات ، برلين 1975 .

8) إن بحث رناته شتيفان هو في رأيي واحد من الأبحاث النظرية الأساسية في هذه المشكلة .

9) ر . شتيفان (1975) ، ص 56 .

« الأنثوية » و« الذكرية » ، وذلك بأن تُجمعن الخصائص والقدرات والمهارات « الأنثوية » و « الذكرية » . وهذا يستتبع خصائص وقدرات غير متساوية الوزن ، متكاملة ، ومع ذلك تعني انتقاصاً للجنسين ، إنما مع تأثيرات مختلفة بالنسبة للنساء والرجال .

وتتابع رناته شتيفان قولها : « إن تقسيم العمل بين المرأة والرجل في مجتمعنا ، أو بالأحرى الجمعنة باتجاه تقسيم العمل جنسانياً تقود إلى انتقاص فيزيائي للإنسان ، إلى إنسان مؤنث وإلى إنسان مذكر منفصل عنه بحدود واضحة . المهم أن الانتقاص المعني لكلا الجنسين ذو تبعات مختلفة تمام الاختلاف بل ومتعاكسة بالنسبة للمرأة والرجل »[10] . هذا يعني أنه في مسار الجمعنة تطوّر النساء « بنى فيزيائية ونفسانية تتناسب مع ما يسمى « الطبيعة الأنثوية »[11]والتي تستخدم بدورها لإضفاء الشرعية على المنزلة الدونية للمرأة .

هذا يعني : ليس لأن النساء يملكن منذ ولادتهن بنى فيزيائية ونفسانية معينة ، لذلك عليهن القيام بأعمال مميزة ، بل لأنه ألقيت على عاتقهن مسؤولية العمل المنزلي وتربية الأطفال وراحة الزوج ، لذلك عليهن عبر عملية الجمعنة اكتساب الخصائص والقدرات والمهارات الملائمة .

« فبما أنه يُعين لها جزء خاص ضمن تقسيم العمل والوظيفة ، لذلك تتطور لديها خصائص وقدرات وأنماط سلوك وأشكال وعي معينة تعتبر في البطريركية أنثوية صميمة وبالتالي دونية »[12] . هذا ما تستنتجه رناته شتيفان . إن العاطفية ، والسلبية ، والاهتمام بالأشخاص ، والدقة ، والشعور بالواجب ، والاستعداد للمساعدة ، وضبط النفس ، والمراعاة ، والطاعة ، والخنوع ، والدماثة ، والترتيب ، والأعمال التكرارية السريعة ، والأعمال الرتيبة ، والمهارة اليدوية ، والشعور الضعيف بالذات الخ .. هي

10) نفس المصدر ، ص 52 .

11) نفس المصدر ، ص 53 .

12) نفس المصدر ، ص 54 .

في آن واحد مقدمات لهذا التقسيم للعمل والوظيفة وكذلك نتيجته المتواصلة . « بالنسبة للرجل يسترعي الانتباه بالمقابل أن الناس قلما تتحدث عن طبيعة الرجل ، بل الأرجح أن بناه المكتسبة تفهم من قبل الرجل نفسه ويروج لها على أنها المعيار الإنساني العام ، الذي يقاس به النساء والرجال على حد سواء[13] . والنساء ، اللواتي حُرمن من هذه الكفاءات الذكرية الإنسانية ، يجري مع ذلك قياسهن بها ويُحكم عليهن بالدونية . أما الخصائص والقدرات « الذكرية » ، مثل الموهبة التقنية ، والفاعلية ، والحس المتميز بالواقع ، والميل القوي للانجاز وغيرها ، فتُدعم وتُرسّخ تفوق الرجال كجنس سائد .

والآن ، إذا كان التقسيم الجنساني للعمل بين النساء والرجال سبباً لعدم تساوي منزلة الجنسين ، عندئذ يلح علينا السؤال عن سبب هذا التقسيم للعمل . هناك ثلاثة منطلقات نظرية أساسية لتفسير تقسيم العمل الجنساني وبالتالي لتفسير الفرق بين النساء والرجال :

1 ـ المنطلق البيولوجياني : يستند هذا المنطلق إلى الفرضية بأن فروقاً طبيعية ، بيولوجية بين النساء والرجال هي سبب الفروق بين الجنسين وبالتالي سبب تقسيم العمل الجنساني . ومن هنا يجري من ثم اشتقاق المنزلة المغايرة اجتماعياً ، أي المنزلة المتدنية في الواقع للنساء ، وسيادة الرجال على النساء (ممثلو هذا المنطلق : مورس ، واينغر ، هايمانس ، ليرش ، هانزن وآخرون) . وسوف لن أعرج على هذا المنطلق فيما بعد ، ذلك لأنه بيولوجي واضح ولا يعير أدنى اهتمام لحقيقة أن الإنسان كائن اجتماعي .

2 ـ الانطلاق من المشروطية الاجتماعية مع الاعتراف بوجود « فرق طبيعي » ضئيل : يستند هذا المنطلق إلى الافتراض بأن الفروق بين النساء والرجال ، كما نجدها اليوم ، هي بصورة أساسية نتيجة علاقات اجتماعية معينة . هذا يعني أن الفروق بين النساء والرجال لا تشتق كلياً من العلاقات الاجتماعية المعنية وأن فرقاً صغيراً بين النساء والرجال سيبقى موجوداً على الدوام : ليس النساء أدنى من الرجال ، بل من نوع

13) نفس المصدر .

مغاير . غير أنها « نوع مغاير » لا يقف متساوياً إلى جانب « نوع » الرجل ، بل يُقاس ويُقيَّم به . كما يبقى دائماً في شروح هذا المنطلق لواقع المرأة الاجتماعي المميز فضلة غير موضحة ، عليها « في مكان ما » أن تبرر علاقة اضطهاد الرجل للمرأة . (ممثلو هذا المنطلق هم المنظرون الاشتراكيون الكلاسيكيون مثل ماركس وانغلز وبيبل . وكذلك المحدثون مثل دانهوير وهورتس ومنشيك وغيرهم) .

3 ـ الانطلاق من المشروطية الاجتماعية الكلية: هذا المنطلق يرفض القسمة البيولوجية للجنسين (باستثناء ما ذكر من وظيفة الحمل والولادة) ، ويعيد الفروق بين الجنسين كلياً إلى العلاقات الاجتماعية المعنية . وهو ينطلق من أن كل فرق بين الجنسين مشروط اجتماعياً ، أي أنه نتاج تقسيم العمل بين الجنسين وأنه من حيث المبدأ قابل للعكس . الفرق الوحيد هو القدرة البيولوجية على الإنجاب . ولكن حتى « الأمومة الاجتماعية » المشتقة من هذا الفرق مشروطة اجتماعياً . ولا يمكن الإشارة بوضوح كاف إلى أنه ليس هناك ما يبرر الاشتقاق الاتوماتيكي للأهلية في تربية الأطفال من القدرة على الإنجاب . فالأمومة الاجتماعية ليست تبعة حتمية وطبيعية للأمومة البيولوجية . كما أن ما يسمى « عاطفة الأم » هو ملقن ، وليس فطرياً . هذا المنطلق يستند ، إلى جانب التحليل المادي المتشدد للعلاقات بين الجنسين ، إلى المدركات الجديدة لمختلف الفروع العلمية .

وكما في المنطلق الأول يستند هذا المنطلق في تفسيره لبعض الفروق بين الجنسين (وبالتالي أيضاً لبعض مجالات تقسيم العمل بين الجنسين) إلى العلاقات الاجتماعية التي يعيش كلا الجنسين في ظلها ،لكنه يقول بوضوح ، إن هذه العلاقات لا تفسر جميع الفروق بين الجنسين وبالتالي لا تفسر تقسيم العمل بين الجنسين .

على أنني سوف أبين فيما يلي ، بأن المحتوى القابع تحت هذه الفضالة هو بالضبط ما تقوم عليه اليوم المنزلة المتدنية للنساء وما يضفي شرعية على سيادة الرجال للنساء . على هذا الأساس سيكون بعدئذ انتقاد هذا المنطلق واضحاً مرة أخرى .

ج ـ التقسيم « الطبيعي » للعمل لدى المنظرين الاشتراكيين .

كيف يتجلى الآن « التقسيم الطبيعي للعمل » بين الجنسين في المجتمع البدائي ، وأي الفروق البيولوجية بين النساء والرجال هي السبب في نظر الكلاسيكيين و « الأنبياء » الاشتراكيين لمسألة المرأة .

« تقسيم العمل عفوي صرف : يتواجد بين الجنسين فحسب . الرجل يقوم بالحرب ، يمضي إلى الصيد البري وصيد الأسماك ، ويستحصل على المادة الأولية للغذاء والأدوات الضرورية لذلك . والمرأة تهتم بالبيت وبتهيئة الطعام واللباس ، تطبخ ، تحيك وتخيط . وكل واحد منهما سيد في ميدانه : الرجل في الغاب ، والمرأة في البيت . كل منهما مالك للأدوات التي يصنعها ويستعملها : الرجل للأسلحة وأدوات الصيد ، والمرأة مالكة لمتاع البيت . الاقتصاد البيتي شيوعي » . . .[14] و « . . . كسب المعيشة كان دائماً شأناً من شؤون الرجل ، هو الذي يصنع الوسائل اللازمة لذلك وهو مالكها »[15] . إذا كان تقسيم العمل هذا عفوياً ، وبالتالي غير مرهون بالمجتمع ، عندئذ يجب أن يكون ناجماً عن كفاءة مبررة بيولوجياً لدى الرجل بالنسبة للميدان « الخارجي » . فما هي القدرات والخصائص المبررة بيولوجياً والتي رآها المنظرون الاشتراكيون تؤهل النساء أقل من الرجال للكسب البراني وأكثر منهم للعمل الجواني ؟

بهذا الصدد يقول بيبل : « عموماً كانت في الزمن البدائي **الفروق الفيزيائية والعقلية** (التشديد من قبل المؤلفة) بين الرجل والمرأة أقل بكثير مما هي في مجتمعنا . لدى جميع المتوحشين تقريباً وجميع الشعوب في مرحلة البربرية (تبعاً لانغلز البربرية متطابقة مع المتريركية ـ ملاحظة من أ . ش) كانت الفروق في وزن وفي حجم الدماغ أقل مما لدى شعوب الحضارة . كذلك بالكاد كانت القوة واللياقة البدنية لدى نساء هذه

---

14) انجلز ، الأعمال الكاملة ، المجلد 21 ، ص 155 .

15) المصدر السابق ، ص 157 .

الأقوام متخلفة عما لدى الرجال »[16].

إذن كل ما هو « مؤنث » شبيه « بالمذكر » ، إنما دائماً أقل منه بقليل ، أدنى منه . بل حتى حيث لا يعرّف بيبل « المؤنث » بصلته بـ « المذكر » (وهو المعيار الذي يقيس به كل شيء) سرعان ما يتضح بأن الكفاءات الأنثوية المزعومة ، هذه المغايرة ، مقاسة بالمعايير البطريركية ، وبقابليتها الفعلية للاستغلال والاضطهاد ، تعتبر خصائص وقدرات سلبية .

يقول بيبل : « من ناحية أخرى ، المرأة **بطبيعتها أكثر اندفاعاً** من الرجل ، **أقل تبصراً ، أكثر نكراناً للذات ، أكثر سذاجة** ، لذلك تسيطر عليها **انفعالية أعظم** (أي أنها أقل عقلانية ، أقل منطقية الخ ـ ملاحظة من أ . ش) ، وأجمل مظهر لهذه الانفعالية تلك **التضحية البطولية** حقاً التي بها **تزود المرأة عن الطفل وتهتم بأفراد أسرتها وترعاهم** في حالات المرض . وبالعكس ، **أثناء الغضب** تجد هذه الانفعالية تعبيرها الكريه . إلا أن الجوانب الجيدة مثل الجوانب السيئة يجري تشجيعها أو لجمها أو قلبها في المقام الأول عن طريق المنزلة الاجتماعية . فنفس الواقع الذي يظهر في ظروف غير ملائمة على أنه غلطة ، يصبح في ظروف ملائمة منبعاً للسعادة للشخص ذاته وللآخرين[17] . ويقول بيبل أيضاً : « . . . كذلك **تمتلك المرأة صبراً أكبر ، مهارة يدوية أفضل** ، تجعلها تمارس عدداً من الأعمال باتقان **أعظم** من الرجل . . . »[18] . و « نحن أيضاً نعتقد ، بأنه تقسيم ملائم للعمل أن **يترك للرجال الدفاع عن الوطن ، وللنساء الاهتمام بالموطن والموقد** » . . .[19] .

إن قلة التفكر والسذاجة ، مثلاً ، من الصعب أن يكونا من الكفاءات المغايرة

16) أوغست بيبل : المرأة والاشتراكية ، برلين 1973 ، ص 51 . هناك فصلان مترجمان من هذا الكتاب إلى العربية . ـ ملاحظة من ب . ع .

17) نفس المصدر ، ص 180 ـ 181 .

18) نفس المصدر ، ص 244 .

19) نفس المصدر ، ص 321 .

والمساوية لكفاءات الرجل . وكذلك هو وضع الاستعداد للتضحية دون تأكيد الذات ، والاندفاع والانفعال الزائد دون ترو . إن هذه الخصائص أكثر مواءمة للاضطهاد من قبل الطائفة التي ـ بحكم بيولوجياها المزعومة ـ تتصف بتفكر أكبر وبالعقل والقوة . كذلك فإن مثال « ملعقة الطبخ بدلاً من السلاح » تدلّ بوضوح على هذه العلاقة السلطوية بين الجنسين .

إلى جانب التضحية ونكران الذات والعاطفية الزائدة ، وهي الخصائص التي تؤهل النساء لتنشئة الأطفال ، وإلى جانب الصبر الذي يمثل أكثر ما يمثل مقدمة للاضطهاد (إذا لم يكن مرتبطاً بالفاعلية وتأكيد الذات) ، هناك أيضاً المهارة اليدوية النسوية الممجدة كثيراً ، التي تؤهل النساء ـ كما يزعمون ـ بصفة خاصة للأعمال التقليدية في البيت مثل الخياطة والرتي والتطريز . غير أن هذه كلها خصائص تستعمل اليوم أيضاً كذريعة لتحديد الأعمال « الأنثوية » المميزة ولاضطهاد النساء ، وكذلك لتبرير عدم صلاحية الرجال في هذا المجال . والمنظرون الاشتراكيون لا يرون في إلحاق هذه « الكفاءات الطبيعية » بالنساء أي تفرقة . ولو حدث شبيه ذلك مع أية فئة أخرى من المجتمع لكان تفرقة في أعين المنظرين الاشتراكيين .

ليس مصادفة أن يؤخذ في النظرية ، عندما يكون موضوعها النساء ، دون ترو بمثل هذه المقولات غير المقبولة علمياً والخاطئة ، ليس مصادفة بل يجب أن يُفهم هذا على أنه تعبير عن « ضيق الأفق » البطريركي الملازم للعلم في الوقت الحاضر .

بالنسبة لماركس كان ما يسمى « التقسيم الطبيعي للعمل » في وقت ما : « بالأصل ليس إلا تقسيماً للعمل في النكاح . . . »[20] . لكنه في نفس اللحظة يستنتج من ذلك « تقسيم العمل الذي ينشأ من ذاته أو فطرياً بحكم الاستعدادات الطبيعية ، على سبيل المثال القوة الجسدية ، الحاجات ، الصدف الخ . . . »[21] . وبعد أسطر

---

20) ماركس ، الأعمال الكاملة ، المجلد 3 ، ص 31 .

21) نفس المصدر ، ص 31 .

قليلة يتحدث عن « التقسيم الفطري للعمل ضمن الأسرة »[22] .

ولكن ، من أين تأتي هذه « الاستعدادات الطبيعية » ؟ ومنذ متى كانت الحاجات بالنسبة لماركس سبباً للعلائق الاجتماعية ؟ ومنذ متى كانت الصدف عنصراً تفسيرياً ؟ وكما نعلم من أبحاث مستجدة وأبحاث متقدمة أيضاً[23] ، فإن القوة الجسدية هي أيضاً نتيجة وليست سبباً لتقسيم العمل بين الجنسين .

فالمنظرون الاشتراكيون ، إذن ، لا يقدمون جوابا على مسألة من أين تأتي « الاستعدادات الطبيعية » للكفاءات الجنسانية . بل إنهم يبقون السؤال على حاله بإشارتهم إلى « الاستعدادات الطبيعية » و « الحاجات » و « الصدف » الخ ، الأمر الذي يهزأ بمنطلقهم . هذه الاحالات علامة التحليل الخاطىء . إلا أن التفصيل في هذا الموضوع سوف يجعلني أخرج عن المسألة التي نحن بصددها .

تنظير كهذا يجب أن يتنطح أيضاً لتفسير سلطة النساء الغامضة في المجتمع البدائي أو بالأحرى في « المرحلة البربرية » . هنا أيضاً ، وبنظرة غير مادية تماماً يفترض أن لا تكون المنزلة العالية للنساء ، المقامة على العلاقات المادية هي السبب في سيطرة النساء ، بل مراعاة طائفة الرجال لـ « مغايرة » النساء ، لكفاءتهن الأنثوية . بهذا الصدد يقول انغلز : « إنه لمن أسخف التصورات التي خلفها عصر التنوير في القرن الثامن عشر ، أن الأنثى كانت في بداية تطور المجتمع عبدة للرجل . فالأنثى عند جميع المتوحشين والبرابرة في الطور الأدنى والأوسط ، وجزئياً في الطور الأعلى ، لم تكن تتمتع بالحرية فحسب ، بل أيضاً بمنزلة محترمة . . . إن الاقتصاد البيتي الشيوعي ، الذي كانت الإناث فيه ينتمين جميعهن إلى نفس السلالة ، هو الأساس الموضوعي لسيطرة الإناث العامة الانتشار في العصر البدائي . . . إن تقسيم العمل بين الجنسين تحدده أسباب مغايرة تماماً لمنزلة المرأة في المجتمع . . . ولكن الاقتصاد البيتي الشيوعي يعني

22) نفس المصدر ، ص 32 .

23) إن القوة واللياقة البدنية هما نتيجة لتمارين ونشاطات ذات نوعية معينة ، هذا ما تثبته في المقام الأول أبحاث مستجدة في الرياضة .

سيادة النساء في البيت . كما أن الاعتراف حصراً بالأم الوالدة ،مع استحالة التعرف بثقة على الأب الوالد ، يعني الاحترام الفائق للإناث ، أي للأمهات . . . »[24] .

إن القول بأن انغلز يفسر المنزلة المتفوقة للنساء في المجتمعات المتريركية بـ « الاحترام » المقدم لهن فقط ، يدل على فهم خاطىء للسبب الذي يقدمه انغلز لتفسير هذه السيادة (« اقتصاد بيتي شيوعي . . . سيادة الإناث في البيت ») . ومن المهم هنا أن نلاحظ أيضاً ، أن انغلز قصد بكلامه عن المجتمع المتريركي شكلاً واحداً فقط من عدة أشكال للمجتمعات المتريركية . و « الاقتصاد البيتي » في ذلك الزمان لا يمكن خلطه مع « التدبير المنزلي » الحالي ، وكذلك لا يمكن مساواة أعمال إعادة الإنتاج التي تقوم بها ربة البيت حالياً مع أعمال الاقتصاد البيتي وقتذاك . فالتفريق بين عمليتي الاستهلاك والإنتاج الماديتين ، كما هو النموذج في نمط الإنتاج الرأسمالي ، باعتباره توزيعاً للعمل اللازم اجتماعياً إلى حقل الإنتاج الاجتماعي وحقل إعادة الإنتاج الخاص ، هذا التفريق لم يكن موجوداً في المجتمعات ما قبل الرأسمالية .

إن الاقتصاد البيتي كان يمثل وحدة إنتاجية ، حيث تجري جميع النشاطات اللازمة اجتماعياً (أي اللازمة للجماعة البشرية المعنية) . فلم يكن يشمل فقط الأعمال التي تقوم بها حالياً المرأة في المنزل لإعادة إنتاج الأفراد الداخلين في عملية الإنتاج . لذلك فإنه من الأصح القول ، إن النساء كن يحزن في ذلك الزمان في عملية الإنتاج الجماعي (أي في الاقتصاد البيتي) الوظيفة الحاسمة ، وفقط من خلال وظيفتهن المركزية في عملية الإنتاج الاجتماعية يمكن تفسير سيطرتهن .

بناء على ذلك لا تصمد الحجة ، التي كثيراً ما تطرح في هذا المجال ، بأن المرأة ـ بحكم إمكانياتها البيولوجية لإنجاب الأطفال ـ لا تستطيع أبداً أن تساهم بقدر الرجل في الإنتاج الاجتماعي . ذلك لأنه وراء هذه الحجة يقبع تصور بأن العلاقات كانت دائماً موجودة في نفس الشكل الذي تظهر فيه أمامنا الآن . إذ ذاك لا يؤخذ بالحسبان أن

---

24) انجلز ، الأعمال الكاملة ، المجلد 21 ، ص 53 .

النساء في المجتمعات المتريركية قد عرفن وسائل منع الحمل وطرق الاجهاض[25] . فالقدرة على الإنجاب كان بامكانهن استخدامها بشكل عقلاني ، دون أن يخرجن لهذا السبب من عملية الإنتاج الاجتماعي .

إذن فالسيادة مرتبطة بوظيفة مهيمنة في عملية الإنتاج الاجتماعي وإعادة إنتاج الحياة المادية . وهكذا تقرر وظيفة جنس من الجنسين ضمن إطار علاقات الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعية هيمنة هذا الجنس أو خضوعه في الحياة الاجتماعية . ولا يستطيع أحد الجنسين ، أو أية منظمة اجتماعية ، أن يهيمن إلا إذا امتلك حقوق التصرف بوسائل الإنتاج ومنتجات العمل . ذلك لأن : « التحكم بالوارد إلى وسائل الإنتاج ومنتجات العمل ذو أهمية حاسمة ؛ وهذا التحكم يعني في الوقت نفسه نفوذاً اجتماعياً وسلطة جزائية ، إذن علاقات سياسية . فلعلاقات الإنتاج الكلمة الأخيرة في هيمنة هذه الهيئة أو تلك »[26] . وبالتحديد هذا هو سبب سيادة النساء في مختلف أشكال **المجتمعات المتريركية** ، سبب « **سلطتها الحقيقية** » . . . ، « **سيادتها على المجتمع والرجل** »[27] .

وقد كتب ميشائيل شتيفان بهذا الصدد : « هكذا كانت النساء منتجات في المجتمعات المتريركية ، بالإضافة إلى أنهن كن يتحكمن بوسائل الإنتاج ، وعلى أساس هذه السلطة الاقتصادية كن أيضاً يمتلكن السلطة السياسية »[28] . ويتابع القول : « وظيفة أي من الجنسين هي وحدها التي تقرر الهيمنة أو الخضوع في المجتمع ، شريطة

---

25) غولد ديفيز . سيرغالاهاد .

Gould Davis: The first sex. Baltimore;Maryland 1972.

Sir Galahad: Muetter und Amazonen.Berlin 1976.

26) غودوليه : الانتروبولوجيا الاقتصادية ، أبحاث حول مفهوم البنية الاجتماعية للمجتمعات البدائية ، هامبورغ 1973 ، ص 50 .

27) م . شتيفان : سيادة النساء ـ سيادة الرجال ـ المساواة ، برلين 1975 ، ص 95 .

28) المصدر السابق .

أن يكون هناك فصل في الوظائف تبعاً للجنس في المجتمع المعني ضمن إطار علاقات الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعية »[29] .

توجد حالياً عدة أبحاث علمية[30] تشير إلى أن المتريركيات ، التي ظهرت للوجود ، لم تكن بأي حال ، كما ظن انغلز وبيبل ، مجرد مجتمعات حق الوراثة فيها أمومي أو السيطرة فيها للنساء في البيت . إن أبحاثاً مستجدة[31] ، وأخرى عاصر بعضها انغلز واستشهد بها بيبل[32] ـ دون أن يأخذ بنتائجها ـ ، برهنت على أنه وجدت متريركيات ، أي « سيادة النساء » ليس في ما تسمى مجتمعات بدائية فحسب ، بل في مختلف مراحل التطور الاجتماعي للبشرية . وقد وجدت سيادة النساء أيضاً في دول عالية التطور (في مرحلة « الحضارة » مع كل اللزوميات التي ذكرها انغلز) ، في مصر وفي المنطقة التي تقع عليها تركيا حالياً وفي اليونان وغيرها . هذه المجتمعات المتريركية كانت ، تبعاً للأبحاث المذكورة أعلاه ، تتميز بسيادة النساء على الرجال وبتدني منزلة الرجال واضطهادهم ، وبمعاكسة مطلقة لتقسيم العمل بين الجنسين . هنا أيضاً وجدت ، بناء على تقسيم العمل الجنساني ، فروق مميزة للجنسين ، إنما معكوسة تماماً . هذا يعني : كانت النساء تمتلك الخصائص والقدرات التي يملكها الرجال الآن ، والرجال كانوا يملكون الخصائص التي تملكها النساء الآن . لقد وجدت هذه المتريركيات في مجتمعات متطورة ، فيها ملكية خاصة وتقسيم متطور نسبياً للعمل الاجتماعي وتجارة

---

29) المصدر السابق ، ص 96 .

30) م . فيرتينغ : دولة النساء ـ دولة الرجال ، في إعادة تأسيس سيكولوجيا الجنسين ، برلين 1974 . غولد ديفيس (1973) . م . شتيفان (1975) .

R. Graves: The Greek Myths, Vol.I, New york 1957.

J. Meelaart: Earliest Civilization in the Near East, New york 1957

31) كندر وهيلغيمان : أطلس دي تي فاو لتاريخ العالم ، ميونيخ 1964 .

32) بيبل (1973) ، المصدر المذكور سابقاً ، ص 51 .

وطبقات وعبيد ومؤسسات حكومية[33] .

إن وجود الدول المتريركية ـ مع معاكسة مطلقة لتقسيم العمل بين الجنسين وبالتالي الفروق بين الجنسين ـ تدل على أن ما نجده اليوم من تقسيم للعمل بين الجنسين لا يعود إلى فروق فيزيولوجية أو بيولوجية ، أي لا يعود إلى فروق طبيعية بين الجنسين ، بل إن الفروق التي نصادفها اليوم بين الجنسين هي نتيجة لتقسيم العمل بين النساء والرجال . بهذا الصدد تقول ماتهيلده فيرتينغ : « التكوين المختلف للجنسين ليس سبباً ، بل تبعة تقسيم العمل بين الجنسين »[34] .

ويقول ميشائيل شتيفان : « لذلك نستطيع القول بكل ثقة ، بأن التعضية الجسدية للمرأة لم تلعب أي دور في تطبيق تقسيم العمل . فالضعف الأنثوي ليس سبباً ، بل تبعة لتقسيم العمل »[35] . هكذا تتزعزع أسطورة أن سيطرة الرجال (أي البطريركية) تقوم على أساس فروق « طبيعية » بين الجنسين ، وأنها نتيجة تقسيم « فطري » للعمل .

إن نتائج الأبحاث المستجدة في الانتروبولوجيا والاثنولوجيا والارشيولوجيا كما في علم التاريخ تثبت أيضاً ما سبق ذكره من أن ما يسمى « التقسيم الفطري للعمل » ليس سبباً لمنزلة النساء الاجتماعية في الوقت الحاضر ، بل نتيجة لعلاقات الإنتاج المادية . وهكذا استطاعت مارغريت ميد[36] أن تثبت منذ 1928 في أبحاثها عن قبائل غينيا الجديدة ، أنه توجد أشكال اجتماعية لا وجود فيها للفرق بين الجنسين ، كما نعرفه اليوم

---

33) فيرتينغ (1974) ، المصدر المذكور سابقاً . هذا البحث يسمح ـ بنظري لأول مرة ـ بإدراك الأسباب الفعلية لتغير منزلة الجنسين في التاريخ . ويمثل بحث ميشائيل شتيفان (1975) ، المذكور سابقاً ، تطويراً شاملاً للموضوع .

34) فيرتينغ (1974) ، المصدر المذكور ، ص 49 .

35) م . شتيفان (1975) المصدر المذكور ، ص 23 .

36) مرغريت ميد : الشبيبة والنشاط الجنسي في المجتمعات البدائية ، ثلاثة مجلدات ، ميونخ 1970 .

أو كما قامت عليه نظرية انغلز في التقسيم « الفطري » للعمل . وأكدت ميد أن النساء لدى هذه العشائر لا يتفوق عليهن الرجال ، لا في ضخامة الجسم ولا في قوته ، وانهن كن يقمن بنشاطات تعتبر لدينا رجالية خالصة (كما على سبيل المثال الحراثة وصيد الأسماك) .

كذلك لم يعد من الممكن التمسك برأي انغلز حول التعاقب المنتظم للمتريركية والبطريركية ، ولا التمسك بافتراض أن المجتمع البطريركي يمثل درجة تطور أعلى من المتريركية في تاريخ البشرية (انظر بهذا الخصوص ميرفلد 1972(*) ، غودلييه 1973 ، شتيفان 1975) ، بل إن نتائج الأبحاث تشير إلى أنه وجدت في مجرى التاريخ البشري تناوبات متكررة بين المتريركية والبطريركية والمجتمعات المساواتية . جميع هذه النتائج المستجدة تدفعنا إلى الاستنتاج ، بأن الفروق الحالية بين النساء والرجال لا تستند إلى فروق طبيعية بين الجنسين ، بل الأصح أنها تعبير عن تقسيم نوعي للعمل بحسب التابعية لأحد الجنسين ، وهذا التقسيم للعمل هو بحد ذاته نتيجة لعملية التطور التاريخية .

إن ما ذكر أعلاه لا ينوب عن تفسيرات إيجابية للشكل التاريخي لعلاقات التسلط الحالية بين النساء والرجال ، إنما يشير إلى أن جميع المنطلقات التي تعتبر هذه العلاقة السلطوية نتيجة « فرق طبيعي » أو « اختلاف في الطبيعة » بين الجنسين ، لا تصمد أمام النقد . فيما بعد سوف نقوم بذلك من زاوية علم النفس ونبين كيف أن العلاقات الاجتماعية تؤثر ومنذ الشهور الأولى على ما إذا كان الطفل سيصبح « بنتاً أم صبياً » .

د ـ تبعات البيولوجيانية لدى المنظرين الاشتراكيين

إن الفروق الجنسانية ، التي اعتبرها المنظرون الاشتراكيون أصلية ، لم تستتبع ـ كما يقال ـ أي إجحاف بالنساء ، إنما في مجرى تطور المجتمع تسببت مع عوامل أخرى في

*) م . ميرفلد : تحرر المرأة في النظرية والتطبيق الاشتراكيين ، راينبك / هامبورغ 1972 . أما الباحثان الآخران فقد سبق ذكر مؤلفاتهما المقصودة .

اضطهاد المرأة . وهكذا كتب انغلز : « ما دام إنتاج المواد الغذائية في أدنى مستوياته ، يلبي متطلبات بسيطة جداً ، كان الرجل والمرأة يقومان بنفس النشاط من حيث الجوهر . لكن مع ازدياد تقسيم العمل لم يطرأ الفصل في مستلزمات الإنتاج فحسب ، بل أيضاً في كسب الرزق . صيد الأسماك والصيد البري وتدجين الحيوانات وزراعة الحقول تتطلب معلومات متميزة كما تتطلب إلى حد بعيد إنتاج العدد والأدوات التي كانت بالغالب ملكية الرجال . والرجل الذي وقف إزاء هذا التطور في الواجهة ، أصبح السيد الفعلي والمالك لينابيع الثروة هذه »[37] . ويتابع انغلز : « . . . فقط لأن تقسيم العمل خارج الأسرة قد تغيّر . فنفس السبب الذي عزز سابقاً سيادة المرأة في البيت : اقتصارها على العمل المنزلي ، هذا السبب نفسه عزز الآن سيادة الرجل في البيت : لقد اضمحل الآن العمل المنزلي أمام عمل الرجل في كسب المعيشة . عمل الرجل أصبح كل شيء ، وعمل المرأة أصبح ملحقاً تافهاً . . . »[38] .

طالما أن المنظرين الاشتراكيين لا يضعون تقسيم العمل بين الجنسين بكليته موضع تساؤل ، وطالما أنهم ـ ولو ضمن حدود ـ ينطلقون من الفروق البيولوجية « الطبيعية » بين النساء والرجال ، فإن اشتراكية كهذه ، مقامة على هذا الأساس ، لن تخلّص النساء من منزلتهن المنقوصة . بالعكس ، هم يضفون شرعية على سيادة الرجال للنساء من خلال « الفرق الطبيعي » المزعوم ، الذي هو ذريعة لاضطهاد جنس النساء ولاستغلال الكفاءات الأنثوية في حقل إعادة الإنتاج كما في حقل الإنتاج .

وهكذا فإن « حلهم » لمشكلة اضطهاد المرأة لا يستهدف تحرير النساء من ذلك التقسيم للعمل بين الجنسين : إذ أنه « طبيعي » . وكل ما يجب فعله هو التقليل من تلك الطفرات التي تنشأ ضمن المجتمع المعني . بهذا الصدد كتب بيبل : « إن امرأة المجتمع الجديد مستقلة تماماً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، لم تعد تخضع لأي مظهر من مظاهر السلطة والاستغلال ، تقف تجاه الرجل حرة وندّة ،هي سيدة

37) انجلز ، الأعمال الكاملة ، المجلد 21 ، ص 157 .

38) نفس المصدر ، ص 158 .

تاريخها . تربيتها مماثلة لتربية الرجل (وليس تربية الرجل مماثلة لتربيتها ـ ملاحظة من أ . ش) ، باستثناء الانحرافات التي يستدعيها اختلاف الجنس ووظائفها الجنسية . وبما أنها تعيش في ظروف حياتية طبيعية ، فإنها تستطيع أن تطور وتستخدم قواها وقدراتها الفيزيائية والعقلية حسب الحاجة ؛ تختار مجالات العمل التي تتناسب ورغباتها وميولها واستعداداتها وتعمل في ظروف مماثلة لظروف عمل الرجل . العاملة في مهنة ما تكون في جزء آخر من اليوم مربية أو معلمة أو ممرضة ، وفي جزء ثالث تمارس نشاطاً فنياً أو تقوم بأبحاث علمية ، وفي جزء رابع تتقلد أية وظيفة إدارية »[39] . . . ويتابع بيبل : « الاشتراكية لا تخلق هنا شيئاً جديداً . . إنها تعيد ، على درجة أعلى من الحضارة وفي أشكال اجتماعية جديدة ، ما كان سائداً قبل أن تستبعد الملكية الخاصة المجتمع »[40] . ثم يقول : « المرأة إذن حرة ، والأطفال الذين تملكهم هي لا يقللون من حريتها ، وكل ما يستطيعونه هو أن يزيدوا من سعادتها في الحياة . ممرضات ومربيات وصديقات والشبيبة الأنثوية الصاعدة يقفون إلى جانبها في الحالات التي تحتاج فيها إلى مساعدتهم »[41] . . . . « لم تعد مبررة أية لا مساواة بين الجنسين ، إلا تلك التي خلقتها الطبيعة من اختلاف في طبيعة الأفراد ومن أجل الوصول إلى غاية الطبيعة . لكن الحواجز الطبيعية لن يتخطاها أي من الجنسين ، لأنه بذلك يعدم غاية الطبيعة فيه ! ! »[42] .

المقصود بهذا الكلام واضح[43]: المرأة تصلح أكثر من الرجل للأمومة الاجتماعية بحكم قدرتها على الإنجاب . هذه هي « الحواجز الطبيعية » . على الطرف الآخر يقف

---

39) بيبل (1973) ، المصدر المذكور ، ص 115 .

40) نفس المصدر ، ص 520 .

41) نفس المصدر ، ص 280 .

42) نفس المصدر ، ص 54 .

43) أنظر « الأعمام الخرافيون لمسألة المرأة : ف . انجلز و أ . بيبل » . هذا المؤلف يتحسس بأمثلة ملموسة الجنسوية لدى الكلاسيكيين الاشتراكيين لمسألة المرأة .

الرجل بكفاءته للقتال وقوته ولياقته البدنية الخ . التي يتفوق فيها على المرأة . إن كون توزيع الأعمال اللازمة اجتماعياً تبعاً للانتماء الجنساني يستخلص من واقع قدرة المرأة على الإنجاب ، نجد مصداقه في الدول الاشتراكية الحالية . ويتبين ذلك على سبيل المثال من المقتطف التالي الذي يتطابق في معناه مع المادة 123 / 2 من قانون العمل في جمهورية ألمانيا الديمقراطية : « ويقع على عاتق المرأة في مجتمعنا العبء الأكبر من رعاية الطفل والعناية به في سنوات العمر الأولى . هذا التقسيم الاجتماعي للعمل بين المرأة والرجل يبدو لنا **معقولاً وطبيعياً** . **إن الوظيفة البيولوجية والاجتماعية للأمومة تقود في** المجتمع الطبقي التناحري إلى الاجحاف بالمرأة . وفي المجتمع الاشتراكي وحده يمكن **أن تتحقق** للمرأة ظروف معيشية لا ينشأ فيها **عن واجبات الأمومة** أي اجحاف اجتماعي . **فهناك** إجراءات متعددة يتخذها مجتمعنا ،هدفها **أن تسهل للنساء القيام بواجباتهن** »[44] . (جميع التشديدات من المؤلفة) .

إن الاشتراكية ، بهذا الفهم وهذا التطبيق ، تعني بالنسبة للنساء الحفاظ على تقييدها ضمن إطار إعادة الإنتاج الخاص . وباعتبار أن هذا « التقييد معقول وطبيعي » ، فإن هذا التقسيم للعمل لن يفهم على أنه اضطهاد اجتماعي جنساني ، بل يقوم (بناء على نظرية انغلز) على أساس بيولوجي »[45] .

وهكذا تبقى في هذه المجتمعات أيضاً قدرة المرأة على الأمومة البيولوجية ذريعة

---

44) دانهاور (1973) ، المصدر المذكور ، ص 187 . انظر المادة 123 / 2 في قانون العمل في جمهورية ألمانيا الديمقراطية : « أجهزة الدولة والمدراء ملزمون بتوفير الشروط التي تتيح للنساء المشاركة بعملية العمل وتطوير قدراتهن وفي نفس الوقت القيام بواجبهن الاجتماعي السامي كأمهات » .

45) انغلر / رامسهورن : كتاب تذكاري للنظرية الماركسية في الأنوثة ـ أو كيف يعيد دانهاوز للمرأة « قدرها الطبيعي » بصورة ماركسية ، برلين الغربية ، دار النشر النسائية 1976 .

لالقاء مسؤولية الأمومة الاجتماعية على عاتق النساء وحدهن . بذلك تتفاقم في نفس الوقت مشكلة « الأعباء المضاعفة » لدى النساء ، إذ عليهن أن يقمن أيضاً بكل ما يقوم به الرجال ، مع أن تقييدهن ضمن مجال إعادة الإنتاج الخاص يعيقهن عن المشاركة في المجالات الاجتماعية الأخرى ، أي في المجالات « الذكرية » . هناك فقط أداة سلطوية أساسية جداً ـ الجيش ـ تبدو المرأة ما تزال مستبعدة عنها . مثل هذه الاشتراكية المطبوعة بالبطريركية لا تجلب للنساء أي تحرر من اضطهادهن كنساء ، لا تجلب لهن أي تحرر من سيادة الرجل .

وقد كتبت كريستينه انغلر وانجيليكا رامسهورن بهذا الصدد : « ربما تفقد الأدوار طابعها الطبقي ، لكن لا شيء غير طابعها الطبقي ، بينما تحافظ على طابعها المبدئي ، حيث تتبدى علاقة الاضطهاد بين الرجل والمرأة . عندئذ لا تتواجد من بعد أدوار جنسانية مشروطة طبقياً ، بل فقط أدوار جنسانية اشتراكية !!! »[46] . وحيث يغفل المنظرون الاشتراكيون عن هذا الشرط الهام من أجل تحرير المرأة تحريراً تاماً ، فإنهم يبقون لدى تحليل التناقض الجنساني أسرى مبدأ العلاقات البطريركية .

ختاماً يمكن القول إذن : ما دام المنظرون الاشتراكيون لا يعيدون اضطهاد جنس النساء إلى سببه الحقيقي ، أي إلى تقسيم العمل تبعاً للجنس وإلى سيادة الرجال ، وبالتالي لا يتيسّر تحليل شامل يعكس التناقض بين الجنسين ويفسره ويهدي بذلك إلى إمكانات عملية للتغيير ، فإن مثل هذا النوع من الاشتراكية لن يجلب للنساء التحرير الكلي . بل أكثر من ذلك : حيث أن المنظرين الاشتراكيين لمساواة المرأة يشتقون تقسيماً للعمل جنساني الطابع نسبياً ، أي تقسيماً تمييزياً تجاه النساء ، فإنهم يساهمون في استمرار اضطهاد النساء وإضفاء الشرعية عليه .

وما دام المنظرون الاشتراكيون لمساواة المرأة يتمسكون بهذا التحليل اللا مادي لمسألة المرأة ، ويتجاهلون نتائج الأبحاث لمختلف الفروع العلمية المناقضة لآرائهم ،

---

46) نفس المصدر ، ص 31 .

فإن رؤية الأسباب الفعلية لاضطهاد جنس المرأة في مجتمعنا ستبقى محجوبة عنهم . وهذا ما سوف يعيقهم عن القيام بالخطوات الصحيحة من أجل التغيير .

وحيث يتبنى المنظرون (والمنظرات) الاشتراكيون المحدثون بصورة دوغمائية ما لم يعد مسنداً بالمعايير العلمية ، ولا يقومون بتمحيص ما يمكن تمحيصه اليوم ، بل يفضلون تقليد الكلاسيكيين تقليداً أعمى في مسألة المرأة ، فإنهم يساهمون بصورة ليست غير هامة في اضطهاد المرأة ! .

الفصل الثاني

النظرية الماركسية في الشخصية والتطور

إن المعلومات الميدانية التي بين يديّ قد جُمعت وقيّمت في ظل منطلقات نظرية شديدة التنوع . على هذا أجدني أمام سؤال عن الأداة التي تتيح لي تنسيق هذه المعلومات وتحليلها . أجدني أمام سؤال عن النظرية التي تنظر إلى عملية الجمعنة باعتبارها (إعادة) إنتاج ثروة العمل الاجتماعية على أرضية العلائق الاجتماعية القائمة ، وبالتالي تنظر أيضاً إلى عملية الجمعنة الجنسانية باعتبارها عملية (إعادة) إنتاج العلاقات القائمة بين الجنسين . هذا يعني : نظرية علمية تنطلق من صلة التربية بكلية علاقات الإنتاج لمجمل المجتمع ، والتي تتيح تفسير التطور المميز للبنت (للمرأة) من زاوية الوظيفة المميزة للمرأة في مجتمعنا ، من أجل تفهم تقسيم العمل الجنساني وما يتضمنه من علاقة سلطوية جنسانية باعتباره عاملاً محدداً لتطور البنت وبذلك الكشف عن أسباب وأواليات التربية الجنسانية .

وهذا يفترض تصور البشر ، نساءً ورجالاً ، على أنهم ليسوا مواضيع للتاريخ ، بل ذوات تاريخهم . هذا يعني أنهم يستطيعون التدخل والتغيير في العلاقات التي يعيشونها .

على أن العلاقات الاجتماعية ، وهذا يصح أيضاً على العلاقات بين الجنسين ، غير قابلة للتغيير بصورة أولية ضمن عملية الجمعنة ، ذلك لأن هذه العملية « تلحق » بعلاقات الإنتاج الفعلية وتعكس مصالح السائدين . من أجل تغيير التربية الجنسانية ، يجب أن تتغير في البدء ظروف العيش الفعلية للنساء والرجال .

وما من نظرية تنطلق من هذه الصلة للتربية بكلية علاقات الإنتاج لكامل المجتمع ، أي بـ (إعادة) إنتاج العلاقات القائمة ضمن عملية الجمعنة ، سوى نظرية

الشخصية المادية التاريخية . غير أن التحليل العام اللا مادي للمنظرين الاشتراكيين في مسألة المرأة يجد تعبيره أيضاً في نظرية الشخصية والتطور الماركسية . فهذه النظرية تعتبر نفسها « حيادية » تجاه الجنسين ، ولا وجود لمفهوم « العلاقات الجنسانية » بالنسبة لها . فهي تقصر العلاقات الاجتماعية على العلاقات الطبقية ـ وهذا في مجتمع يتسم بعلاقات طبقية وجنسانية . وبما أن المنظرين الاشتراكيين ينظرون إلى ما ينتج عن العلاقات الاجتماعية الجنسانية على أنه بيولوجي السبب ، أي « طبيعي » (تقسيم عمل « فطري » بين الجنسين) ، فإنهم بالضرورة لا يتناولونه بشكل صريح ، إذ أن ما تسمى سمات « بيولوجية » لا تدخل في مفهوم الشخصية الماركسي . وسوف لن أتوقف طويلاً عند هذا المأزق في نظرية الشخصية الماركسية ، الذي ينشأ من أنها تريد حقاً تفسير بنية شخصية « الإنسان » كتعبير عن العلاقات الاجتماعية ، لكنها تحدد الفروق المميزة للجنسين في الشخصية تحديداً بيولوجياً . حول هذا الموضوع ثمة دراسة قدمت نقداً أمثولياً لعلم نفس الشخصية الماركسي : براهين من الحركة النسائية . عنوان الكتاب : كتاب تذكاري للنظرية الماركسية في الأنوثة ـ أو كيف يعيد دانهاور للمرأة « قدرها الطبيعي » بصورة ماركسية ، تأليف كريستيانه انغلر وانجيليكا رامسهورن (1976) .

ومع ذلك فأنا أنطلق من أنه بالمستطاع تناول إشكالية التميز الجنساني بمنطلق التفسير الماركسي . وهذا ما لم يحدث حتى الآن ، مما يشير إلى مدى تسلل المصالح البطريركية إلى نظريات المنظرين الاشتراكيين السابقين لمسألة المرأة .

آ ـ تعريف الشخصية .

تتحدد الشخصية بالنسبة للمنظرين الاشتراكيين ـ بتعبير عام جداً ـ من خلال مجموعة العلاقات الاجتماعية . حقاً إن الإنسان كائن بيولوجي ـ اجتماعي ، بيد أن السمات البيولوجية لا تندرج بهذا الاعتبار في مفهوم الشخصية . فهذا المفهوم تنحصر علاقته غالباً بأنماط التفكير والسلوك الأهم اجتماعياً . ولتحديد ماهية شخصية ما علينا أن نتأمل من ناحية مجموع العلاقات الاجتماعية ، ومن ناحية أخرى الشخصية بشكل

ملموس ، باعتبارها موضوعاً وكذلك ذاتاً في العلاقات الاجتماعية (أي أن العلاقات الاجتماعية ليست في منأى عن تأثير الإنسان ، بل هي نفسها نتاج نشاط شخصيات حية[1]) .

وبما أن العلاقات الاجتماعية يجب أن تفهم بصورة تاريخية ملموسة كعلاقات طبقية وكذلك جنسانية ، فيجب من أجل تحديد الشخصية أن ينظر إليها من هذا الجانب . وهذا ما لم يحدث حتى الآن ، كما نوهنا من قبل . وحتى السمات الجنسانية المشروطة اجتماعياً والمعترف بها لم تندرج ضمن المقدمات العامة لنظرية الشخصية والتطور الماركسية . العامل الجنساني لتطور الشخصية مفقود كلياً . وغاية ما نجده تعاريف كالتي قدمها ك . ك . بلاتونوف : « الشخصية هي الإنسان الملموس كذات لإدراك وتغيير العالم ، الإنسان الذي يمثل المعايير الحقوقية والعرفية والأخلاقية لمجتمعه ولطبقته بما في ذلك أيضاً جماعته الصغيرة »[2] .

فالشخصية ليست لا تاريخية ، ذلك لأنها تعيش وتتطور في ظروف تاريخية ملموسة معينة . إنها كائن اجتماعي ، حيث خصائصه وقدراته وتجلياته ومميزاته المعبرة هي نتاج مجتمعه وعصره وموقعه الاجتماعي ووظيفته الاجتماعية . الشخصية هي إذن إنسان (امرأة أو رجل) بجميع قواه الفيزيائية وخصائصه ، التي توجه نشاطه العملي والتي تتحدد بوظيفته الملموسة (تبعاً لجنسه) في عملية الإنتاج وإعادة الانتاج الاجتماعية . وبما أن الرجال والنساء ذوو وظائف مختلفة في مجتمعنا الحالي ، فإن شخصيتهم تتحدد أيضاً بحسب وظائفهم . « كل شخصية هي كائن مفكر وواع . . . ، يحتل منزلة معينة في المجتمع ويمارس وظائف معينة »[3] . والإنسان البالغ

1) كريازيف : تكوين الشخصية كعملية اجتماعية ، في : الشخصية في الاشتراكية ، دار زاملونغ اكاديمي ، برلين 1972 ، ص 37 .

2) بلاتونوف : البنية النفسية للشخصية ، في : الشخصية في الاشتراكية ،دار زاملونغ اكاديمي ، برلين 1972 ، ص 61 .

3) المصدر السابق ، ص 64 ـ 65 .

يمتلك وعياً يضع له أهدافاً يسعى إليها ، وهذا الوعي هو تعبير عن تلك العلاقات الاجتماعية الواقعية التي يعيشها الإنسان المعني .

الشخصية هي إذن في جوهرها ديناميكية ، قابليتها للتغيّر تتعلق قبل كل شيء بالنظام الاجتماعي ، بالانتماء إلى أحد الجنسين ، وبالانتماء الطبقي . وتمكن الديناميكية من التأثير الهادف على خصائص وقدرات الشخصية . ولهذه الديناميكية ، إلى جانب حقيقة أن الشخصية تتحدد باكتساب التجربة الاجتماعية وتعتبر في نفس الوقت قوة للتغيير وخلق علاقات اجتماعية جديدة ، إلى جانب ذلك للديناميكية أهمية عملية كبيرة بالنسبة للتربية التي تستهدف إعادة تكوين فعال واع لما هو قائم .

وإذا ما استوعبت نظرية الشخصية كل هذا ، فإنه من الممكن الكشف عن العناصر المحددة « للشخصية المميزة جنسانياً » ، أو بالأحرى لشخصية الجنسين . فتبين النظرية ما للعلاقات الاجتماعية وللوظيفة المميزة للجنسين ضمن عملية الإنتاج وإعادة الإنتاج الاجتماعي من أهمية بالنسبة للتطور الجنساني للرجال والنساء ، كما تبين تبعية عملية الجمعنة الملموسة إلى العلاقات الاجتماعية الملموسة .

وهذا ما يتيح فهم المرأة ، ليس كضحية لبيولوجياها ، بل كضحية للعسف الاجتماعي الملموس الناجم عن العهدة لها بوظيفة مميزة جنسانياً كربة بيت وأم ، وبنشاطات « أنثوية » مميزة في العمل المهني[4] . على أن النساء لسن مواضيع للتاريخ مسلوبات الإرادة ، بل ذوات تاريخهن الخصوصي . وعندما يضعن وظيفتهن في هذا المجتمع موضع تساؤل ويتصدين لها ، يكنّ في ذات الوقت قوة لتغيير علاقاتنا الاجتماعية .

ب - تطور الشخصية بحسب موضوعة الاكتساب

إن الهم الرئيسي لكتابي هو أن أبين بما يتوفر لدي من المعلومات عبر أية أواليات

---

4) هناك شروح لدى ر . شتيفان (1975) ، المصدر المذكور .

تنتج (يعاد إنتاج) وتتطور الخصائص « الأنثوية » و « الذكرية » الأساسية . وهذا يتطلب منطلقاً تفسيرياً يرى أن التطور أو الجمعنة تتحدد بالعلاقات الاجتماعية الملموسة ، مما يجعل من موضوعة « الاكتساب » ضمن إطار محدود . فهي وُضعت من أجل المجتمعات الاشتراكية ، وتطبيقها المباشر على المجتمعات البورجوازية غير ممكن إلا بشكل محدود . وفيما يلي سوف أعرض أولاً « موضوعة الاكتساب » ، كي أتناولها بعدئذ ضمن حدودها المناسبة للمجتمعات البورجوازية .

تعتبر هذه الموضوعة نفسها في مقدماتها الأساسية حيادية جنسانياً ، وتتجاهل العلاقات بين الجنسين وكذلك شروط التطور الجنسانية . لقد كتب علماء النفس السوفييتيون أعمالاً أساسية حول التطور النفسي للإنسان[5] . لكنهم لم يتطرقوا بتاتاً بشكل صريح إلى شروط التطور النوعية للنساء والرجال . إلا أن هذه الحيادية الإنسانية ما هي إلا ظاهرية ، ذلك لأنه عند النظرة المتفحصة تظهر هذه الحيادية على أنها المبدأ الذكوري ، وتبدو المرأة على أنها الانحراف عن هذا المبدأ . ومع ذلك يتيح هذا المنطلق النظري دمج الشروط المميزة لتطور النساء والرجال في النظرية . وهذا ما سأحاوله في الفصل التالي .

إن الإنسان لا يولد « شخصية » جاهزة ، لا بطبيعة « أنثوية » ولا بطبيعة « ذكرية » . يتطور البشر في نشأتهم الفردية(*) ، أي في عملية الأخذ والعطاء مع المحيط الاجتماعي والجنساني والطبقي ، عبر اكتساب الشروط الاجتماعية المميزة ، حيث يتواجه البشر مع هذه الشروط في شكل تجارب اجتماعية تجسدت في أشياء وأفعال . وهذه الأشياء والأفعال تطورت بتأثير مختلف الشروط الاقتصادية والاديولوجية ، وإذن تبعاً للعلاقات الاجتماعية في شكلها التاريخي الملموس . وهذا يعني بالنسبة لتطور شخصية الجنسين : إن التطور يسير حسب الشروط الاقتصادية والاديولوجية المختلفة ، المرتبطة

5) ن . ليونتيف : مشكلات تطور ما هو نفسي ، فرانكفورت / ماين 1973 . روبنشتاين (1961) . وغيرهما .

*) Ontogeny تطور الكائن الفرد من تلقيح البيضة إلى البلوغ الجنسي . ـ ب . ع .

بوظيفتها الطبقية والجنسانية . ومن هذه الشروط تتألف الشروط الموضوعية للنشاط الحياتي للشخصية ، نساءً ورجالاً .

ما نوع علاقة الإنسان (المرأة ، الرجل) بمحيطه الذي يكتسبه هذا الإنسان في مجرى نشأته الفردية ؟ « إن المحيط الواقعي ، الذي يتحكم بالحياة الإنسانية أكثر من أي شيء آخر ، هو عالم يتبدل من خلال النشاط الإنساني . وباعتباره عالماً من الأمور الاجتماعية التي تجسد القدرات الإنسانية المتكونة في سياق الممارسة الاجتماعية التاريخية ، لا يتواجد هذا العالم بالنسبة للفرد بصورة مباشرة ، إنما يتجلى في هذه القدرات والخصائص كواجبات لكل فرد بذاته . حتى أبسط أدوات وأمور الحاجة اليومية ، التي يصادفها الطفل ، يجب أن يستفيد منها في كيفيتها النوعية . بكلمات أخرى : على الطفل أن ينجز بهذه الأشياء نشاطاً معرفياً عملياً ، مطابقاً لما يتجسد فيها من نشاطات إنسانية . . . »[6] .

يطلق ليونتيف على هذا النشاط عبارة « اكتساب » . ويتميز الاكتساب في أن الفرد يوضع بواسطته حصراً ، خلال عملية ناشطة باستمرار ، في الحالة التي تسمح بأن تظهر في إفرازات التطور النشوئينوعي[**] (التطور التاريخي البشري) « طبيعة الإنسانية الحقيقية ، وخصائصها وقدراتها التي تنتج عن التطور التاريخي الاجتماعي للبشرية والتي اتخذت شكلاً موضوعياً »[7] .

إذن ، على هذا يكون المحيط الواقعي ، الذي يحدد أكثر من أي شيء آخر الحياة الإنسانية ، هو أيضاً عالم يُكتسب جنسانياً ، تبعاً لاختلاف وظيفة الجنسين في مجتمعنا . حتى أبسط أدوات وأمور الحياة اليومية ، التي يصادفها البنات والصبيان ، لا يمكن الاستفادة منها إلا في كيفيتهاالنوعية . بكلمات أخرى : على البنات والصبيان أن ينجزوا بهذه الأشياء نشاطاً معرفياً عملياً ، مطابقاً لما يتجسد فيها من نشاطات « أنثوية » أو

---

6) ليونتيف (1973) ، المصدر المذكور ، ص 281 .

**) Polygeny . - ب . ع .

7) ليونتيف ، ص 281 .

« ذكرية » .

والآن ، ما هي عملية الاكتساب هذه ؟

من بين أشياء العالم المحيط بالفرد ، التي يكتسبها النساء والرجال في مجرى نشأتهم الفردية ، لا تعد المنتجات المادية فحسب ، بل أيضاً النواتج الاجتماعية المعنوية (والناشئة تبعاً لماركس عبر تموضع القوى الذاتية الإنسانية) . ومن هذه النواتج المعنوية تعد الصلات الاجتماعية وكذلك التصورات المترسخة بواسطة اللغة والمكتسبة عبرها (مثلاً البنت لا تصفِّر) . . ومن خلال اكتساب هذه التصورات يكسب البنت والصبي مواقف معينة ، مميزة لجنسهما . ذلك لأن الفرد الواحد يطور علاقته بالمجتمع قبل كل شيء عبر صلاته المتنوعة مع جماعته ، هذه الصلات التي تتواجد بالنسبة له دوماً باعتبارها عضوية متفرعة في شكل أسر وشلل وطوائف وأماكن عمل ومنظمات اجتماعية الخ . ، وباعتبارها في نفس الوقت منظمة تنظيماً جنسانياً .

والآن كيف تكون الصلة مع المنتجات الاجتماعية المادية ؟ تبعاً لليونتيف ليست الأداة بالنسبة للإنسان « مجرد شيء من الخصائص المعينة ، بل موضوع ترسخت فيه مجريات وأساليب العمل المقامة اجتماعياً . وتتجلى الصلة الموافقة للفرد تجاه الأداة في أنه يكتسب ـ عملياً ونظرياً ـ الأعمال المثبتة في هذه الأداة ويطور بذلك قدراته الإنسانية »[8] . على سبيل المثال لا تعطى البنات مجرد دمية أو أواني مطبخ ، بل يلقنها الأهل والمربون في الوقت ذاته المضامين المناسبة (الدمية تساوي هدهدة ، غسيل ، إطعام الخ .) . فالدمية أو أواني المطبخ أو علبة الأشغال ليست إذن مجرد أشياء من أشكال وخصائص معينة ، بل مواضيع تتثبت فيها مجريات وأساليب العمل المقامة اجتماعياً . وتتجلى الصلة الموافقة للبنات (للصبيان) تجاه هذه المواضيع في أنهن يكتسبن ـ عملياً ونظرياً ـ الأعمال المثبتة في هذه المواضيع ـ الأكل ، الطبخ ، الجلي ، دق المسمار ـ وبالتالي يطورون بذلك قدرات مميزة « أنثوية » أو « ذكرية » .

بذلك تجسد عملية الاكتساب أهم مبدأ تطور نشأوي للإنسان (للمرأة ،

8) نفس المصدر ، ص 282 / 283 .

للرجل) . فهي تقوم بـ (إعادة) إنتاج الخصائص والقدرات الجنسانية المتشكلة تاريخياً ، وتقسيم العمل جنسانياً في عملية الإنتاج وإعادة الإنتاج - علاقة السيطرة الجنسانية .

بيد أن النساء والرجال لا يقومون بمجرد استقبال النواتج الاجتماعية المعنوية والمادية ، بل ينتجونها ، يبتكرونها لأنفسهم . هذا يعني ، أن القدرات والخصائص التي تحل في النساء والرجال خلال عملية التطور هي توليدات نفسية ، وليست الأواليات والعمليات الطبيعية للإنسان بالنسبة لهذه التوليدات سوى المقدمات الذاتية الضرورية التي تتيح نشوءها ، لكنها بصفتها هذه لا تحدد استمرار هذه التوليدات ولا ماهيتها . وبما أن النشأة الفردية للنساء والرجال ليست تأقلماً ، أي ليست مجرد تلاؤم مع المحيط ، فإن البشر يستطيعون ، عن طريق تأثيرهم المغيِّر لبنى شخصيتهم ، أن يؤثروا أيضاً على علاقاتهم الاجتماعية ويغيروها .

1 - « مراحل » تطور الشخصية

يكتسب النساء والرجال إذن بصورة فاعلة في كل مرحلة من مراحل تطور[9] نشأتهم الفردية النواتج الاجتماعية ، بنوعيها المادي والمعنوي ، ويطورون بذلك قدراتهم وخصائصهم المميزة « الأنثوية » و « الذكرية » . ولكن ليس جميع أنواع النشاطات لها نفس الأهمية في كل من مراحل التطور . وليس جميع أنواع النشاط في كل سن ، أي في كل درجة تطور ولدى كلا الجنسين ، لها نفس التمثيل . البعض منها يهيمن في فترة زمنية معينة أو ينال أهمية أكبر في التطور اللاحق للبنات أو الصبيان .

في كل مرحلة من مراحل التطور النفسي للبنات والصبيان تتميز صلتهم بالواقع بنوع نشاطي مهيمن . وبما أنه في مرحلة معينة يمكن أن يزداد وزن نوع من النشاط ، لذلك على المرء ألا يتحدث دون تفريق عن تبعية التطور النفسي والنشاط ، بل عن

---

9) لا يجري التطور في مراحل أو أطوار . هذه المفاهيم تخدم هنا فقط التبويب الأفضل لمواد البحث المختلفة .

الصلة ما بين مراحل التطور الخاصة والنشاط المهيمن .

ولتحديد النشاط المهيمن ليس الجانب الكمي وحده حاسماً : فالنشاط الذي يهب له الطفل نفسه في مرحلة تطور معينة أطول مدة ، ليس هو بالضرورة النشاط المهيمن . وتكرار نشاط معين في مرحلة ما من التطور لا يجعل من هذا النشاط مهيمناً ، بل ما يفعل ذلك هي الوظيفة المميزة لهذا النشاط بالنسبة للتطور اللاحق ، أي وظيفته بالنسبة للتطور اللاحق من زاوية الوظائف الاجتماعية المميزة ، التي على البنات (أو الصبيان) أن يمارسوها . وإذا ما تغيّر النشاط المهيمن ، تكون بذلك قد رسمت معالم الانتقال من مرحلة تطور إلى مرحلة أخرى أعلى منها (أو ، إذا لم يكن لنا أن نستبعد شروط تطور مَرضية ، إلى مرحلة تطور أدنى) .

فما هي الشروط التي تحدد النشاطات المهيمنة في فترة تطور معينة ؟

إن الشروط التاريخية الملموسة ، تقسيم العمل جنسانياً ، علاقات السيطرة ، الوظائف الاجتماعية التي يحوزها النساء والرجال في ظل هذه الشروط ، هي التي تحدد وتؤثر على المضمون الملموس لكل درجة من درجات التطور ، وكذلك على كامل مجرى التطور النفسي . هذا يعني ، أن الشروط الجنسانية والطبقية للمرحلة التاريخية الملموسة المعنية تقود إلى المضمون الخاص لفرادى مراحل التطور . وإن مدة ومضمون مراحل التطور ، التي تهيء النساء والرجال لعملهم المميز جنسانياً وطبقياً ، لم يكونا بأي حال في مجرى التاريخ دائماً هما نفسهما . ويتجلى هذا مثلاً في أن مرحلة الحضانة وزمن المدرسة قد تغير حجمهما الزمني من عصر إلى عصر . وذلك بقدر ما نمت متطلبات المجتمع لفترة التطور هذه .

إن التسلسل الزمني لمراحل التطور الإفرادية ، وقبل كل شيء مضمونها ومدتها ـ كما عرضتها فيما يتبع من دراستي هذه ـ ليست سارية على كل حضارة وكل زمان . هذه الحقيقة لا يحسب لها الاشتراكيون حساباً كافياً . بل إنهم يميلون إلى نمط رؤية شديدة التمحور الأقوامي(*) ، حيث أنهم يصنفون مرحلة التطور الحالية على أنها تطور أعلى

*) ethnocentric مُستعرق ، كما جاء في قاموس المورد . ـ ب . ع .

عموماً . . . وفيما يلي سوف أتبنى مراحل التطور لنظرية التطور الماركسية ؛ وسألتزم بالتقسيم إلى مراحل ، إذ أن غالب الأبحاث التي استخدمتها تتوجه هذا الاتجاه . إن التسلسل الزمني ومدة ومضمون مراحل التطور تتحدد (إلى جانب الانتماء الطبقي) بوظيفة الجنسين والتقسيم الجنساني للعمل وعلاقات السيطرة بين الجنسين في إطار العلاقات التاريخية الملموسة .

2 ـ حول مشكلة موضوعة الاكتساب

من الواضح أن هذه الموضوعة قابلة ضمن حدود للتطبيق على المجتمعات البورجوازية ، ولا يمكن أن تكون بالنسبة لدراستي سوى تصميم مساعد : موديل مساعد لحصر وتنسيق المعلومات الميدانية . في البدء ، « الاكتساب » هو اكتساب اجتماعي للطبيعة من قبل الإنسان . « وما يعتبره علم النفس « اكتساباً » ، ليس في حقيقته الاجتماعية سوى (إعادة) الإنتاج الاجتماعي للأفراد الاجتماعيين »[10] . وإعادة الإنتاج هذا مرهونة بوضع معين (أو شكل معين) للعلاقات الاجتماعية ، مثل اكتساب الطبيعة . بذلك فإن عملية إعادة إنتاج الأفراد الاجتماعيين في ا لمجتمع البورجوازي مرهونة دائماً بالعلاقات الاجتماعية الملموسة ـ التي هي أيضاً علاقات مميزة جنسانياً . « إن الأفراد يجري إنتاجهم بحيث يواجهون شكل نشاطهم على أنه قوى غريبة وغير مكشوفة »[11] . هذا يعني ، أن العلاقات الاجتماعية ، الجنسانية منها مثل الطبقية ، تفرض نفسها « من وراء ظهورهم » . هذا يعني ، أن قلب الذات موضوعاً ، الذي يقوم به المجتمع البورجوازي ، يسري أيضاً في عملية إعادة الإنتاج الفردية ، من حيث أن الذات في هذه العملية هي في نهاية المطاف الرأسمال ، وأن الفرد العامل بشكل حر

10) ف . أ فولف : حول مشكلة « موضوعة الاكتساب » ، مخطوط غير منشور ، برلين 1975 ، ص 1 .

11) نفس المصدر .

ظاهرياً هو الموضوع ، الذي تخلقه الذات نوعا ما على صورتها »[12] .

وبما أن علاقة الرأسمال تطور أيضاً قوة إنتاج العمل الاجتماعي ، فإن ما تتطلبه هذه العلاقة من إعادة إنتاج اجتماعي لثروة العمل يتضمن كذلك أيضاً جانباً من تطور قوة العمل الفردية إلى المستوى الوسطي الذي بلغه الوضع التاريخي لقوى الانتاج . « ينتج عن ذلك وعن حقيقة ، أن كامل العملية تتحقق أساساً عبر النشاط الحر شكلياً، الموجه توجيهاً غير صريح ، ينتج المظهر الخادع بأن كل فرد يجعل من نفسه(كذات) سيداً على قوى الإنتاج الاجتماعي ، بينما العكس هو الصحيح »[13] .

« على كل ، من المهم أن ندرك من جهة أن العملية محددة من خلال الوضع المعطى اجتماعياً لقوى الإنتاج في علاقات إنتاج معينة ، ومن جهة أخرى أن هذا التجديد يحدث أساساً وبالضبط عن طريق النشاط الحر شكلياً للأفراد الاجتماعيين (في إطار الواجب المدرسي الخ .) »[14] . هذه الحرية الشكلية هي على أية حال وهمية وتقدم مجال تحرك نسبياً فقط (ربما أمكن بواسطته مثلاً تفسير الصعود الاجتماعي بسبب التعليم) . وهكذا يبدو أن التطبيق المباشر لموضوعة الاكتساب ، المعدة للمجتمعات الاشتراكية ، على المجتمعات البورجوازية ممكن فيما يتعلق بمجال التحرك النسبي هذا فقط .

إن الدراسات الميدانية المستخدمة قد أعدت جميعها تقريباً على أساس « موضوعة الجمعنة » ومفهوم الأدوار المرتبط بها ارتباطاً وثيقاً . وبالرغم من أن مفهوم الأدوار معرَّف ذاتانياً(*)بتوقعات الأدوار ، ولا يعير اهتماماً لمسألة العلاقات الموضوعية التي عليها تقوم الأدوار ، فإنه يبدو مع ذلك ممكناً أن نستند إلى هذه الدراسات ، بصورة نقدية . حول ذلك كتب ف . أ . فولف : « بالذات هذا الضعف النظري المذكور لكلا

12) نفس المصدر ، ص 2 .

13) نفس المصدر ، ص 3 .

14) نفس المصدر ، ص 4 .

*) Subjektivism الذاتانية ، كما جاء في المورد .ـ ب . ع .

الموضوعتين (التناقض الأصلي المفترض بين الفرد والمجتمع)(**) وكذلك الذاتانية في فهمها لأشكال الحياة الاجتماعية ، هما تعبيران عن الواقع المميز للمجتمع البورجوازي حيث لا يعيش الأفراد بالفعل ضمن علاقات مغتربة فحسب ، بل يخضعون أيضاً لعلاقة تسلط ، ويقعون في تناقض مع العلاقات الاجتماعية .

وإذا صح أن عملية الجمعنة هي ، من وجهة نظر مادية أم وضعية ، العملية التي تعيد بواسطتها العلاقات الاجتماعية إنتاج حامليها الفرديين (إذن ليست عملية تشترطها العلاقات الاجتماعية الجاهزة فحسب ، بل يجري فيها أيضاً أيضاً دائماً ـ إعادة ـ إنتاج الأفراد كأفراد اجتماعيين) ، وأن مفهوم الأدوار هو تعبير ذاتي عن أشكال اجتماعية موضوعية ، عندئذ من الممكن بلا شك ـ حسب تقديري ـ الاستناد بصورة بناءة على الأبحاث الميدانية التي تقوم على هذه الموضوعة »[15] .

**) يوجد ، كما هو معلوم ، تأويلان لمفهوم الجمعنة ـ التأويل الأول يشدد على انبثاق العلاقات الاجتماعية من هذه العملية (بواسطة النشاط « الابداعي » الكامن لدى الأفراد) ، والتأويل الثاني يشدد على الخضوع السافر للأفراد أمام العلاقات الاجتماعية .

15) فولف (1975) ، المصدر المذكور ، ص 4 .

الفصل الثالث

تطور الشخصية في جانبها الجنساني

إذا ما تحرك الجنين في الرحم ، كان نشيطاً ويتقلب ، فإنه سيكون صبياً ـ هذا ما يقوله اللسان الشعبي . إذن ، قبل أن يأتي الطفل إلى العالم ، تكون للأهل أحكام مسبقة بخصوص أنماط سلوك وخصائص الجنسين . « إنها بنت » أو « إنه صبي » ـ هذه الكلمات التي تصدر عن القابلة أو الطبيب هي بداية عملية الجمعنة الجنسانية ، التي لن تنتهي تماماً أبداً . ذلك لأن تقلد الدور الجنساني ليس حدثاً يقع مرة واحدة ، ليس محتوماً بالبيولوجيا . هو على النقيض من ذلك عملية متواصلة من تحصيل المهارات والخصائص المميزة جنسانياً . (حقاً إن هذه العملية تنجز نسبياً عند مرحلة معينة من التطور ، غير أنها تستمر من خلال الواقع الاجتماعي الملموس لتقسيم العمل جنسانياً وعلاقات السيطرة في الإنتاج وإعادة الإنتاج) .

إن البنت المولودة حديثاً (أو الصبي) نفسها لا تعرف بعد أي شيء عن مشكلة جنسها . لكن هؤلاء الذين سيربونها ، لديهم صورة واضحة عن النموذج الأمثولي للبنت أو الصبي . على الابنة أو الابن أن يصيرا شبيهين قدر الإمكان بهذا الموديل ، مهما بلغ الثمن . والثمن غال .

إن ما ينتظره المربون والعالم المحيط من الأطفال من الناحية الجنسانية يقود من جانب الكبار إلى متطلبات ومعاملة متباينة للأطفال ، ويقود من جانب الأطفال إلى تجارب متباينة جنسانياً . هذا ما يغرب حتى عن بال الأهل « التقدميين » ، الذين يتظاهرون أو يعتقدون أنه ليس لديهم مثل أعلى تربوي مختلف بالنسبة للبنات والصبيان . والنتيجة هي التباين بين الاديولوجيا التربوية المعلنة والسلوك الفعلي لدى

الأهل (كما برهنت نتائج أبحاث ايفا اكهوف وياكوب غاوسلا[1]) .

كذلك لا ينجو من ذلك أولئك الذين يعتقدون أنهم يقومون بالأمر أفضل من غيرهم ، فمنذ ساعة الولادة يُمسخ البشر إلى نساء ورجال . سوف أصف هذه العملية من الولادة حتى سن المدرسة . إذ ذاك يتبين أن كل محاولة ، مهما كانت مترددة ، لفرار الطفل من الدور المملى عليه ، تلقى عقاباً . فليس للبنات أن يكنّ « ذكوراً » ، وليس للصبيان أن يكونوا « إناثاً » . فهذا محظور عليهم في الأسرة ، كما هو محظور عليهم لا حقاً في المدرسة والمهنة . ويسري الحظر على البنت الصغيرة كما على المرأة البالغة . الهدف من ذلك هو السريان السهل لتقسيم العمل بطابعه الجنساني وقبول التسلط الجنساني .

ويجدر الانتباه إذ ذاك إلى أن التقسيم الجنساني للعمل ، الحصر والتحجيم ضمن الدور الجنساني ، يصيب في الحقيقة كلا الجنسين ، إلا أن الدور الذكري يوضع كمعيار يقاس به الدور الأنثوي ويحكم عليه بالدونية . وهذا ليس مسألة تقييم فحسب ، بل أيضاً مسألة تتعلق بالواقع . فالنشاطات المميزة أنثوياً تترك فعلاً مجالاً أضيق للتطور الشامل .

إن الدور الأنثوي هو بصورة ملموسة ذو قيمة أدنى من الدور الذكري ، بمعنى أنه

---

1) ايفا اكهوف / ياكوب غاوسلا ، الاستشهاد عن إ . دالستروم :

E.Dahlstrom: The changing roles of men and women. Duckworth 1967.p.64.

درس هذا العمل ثمانية عشرة أسرة وراقب مجرى تطور أطفالها خلال سنوات طويلة مع الكثير من المقابلات وطرق البحث الأخرى . قبل ولادة الأطفال سئل الأهل كيف يبتغون تربية أطفالهم . وبعد الولادة جرت مقارنة الأجوبة لدى أهالي الصبيان والبنات . فلم يتأت اختلاف هام في الاديولوجيات التربوية . لكن في ميعاد لاحق أمكن ملاحظة فروق معتبرة في السلوك التربوي . مثلاً لم ترضع البنات سوى ثلاثة أشهر في المتوسط ، مقابل ستة أشهر للصبيان . هذا الفرق كبير لدرجة لا يتوقع معها وجود مصادفة ، بالرغم من قلة عدد الأسر المشمولة بالبحث .

أضيق وأكثر محدودية . وابتداء من الولادة يعاد ضمن عملية الجمعنة إنتاج العلاقات الاجتماعية الملموسة ، وتوضع المقدمات لتقسيم العمل والتسلط جنسانياً وطبقياً ، وعلى هذا المنوال يعاد إنتاج العلاقات القائمة .

آ ـ بعيد الولادة ـ أهمية الإثارة الحسية

1 ـ استعراض عام لهذه المرحلة من التطور

إن فترة ما بعد الولادة هي فترة انتقالية من حالة وجود داخل الرحم إلى حالة وجود خارج الرحم . في هذه الفترة ، أي خلال الأسبوعين الأولين حتى الأسابيع الثلاثة الأولى ، لا توجد بعد تخوم واضحة بين حالة النوم وحالة الصحو[2] . وبما أن الوليد لا يملك بعد القدرة على إدراك الأشياء فيما حوله ، فإنه أيضاً ليس قادراً على نشاطات هادفة . فالحركات التي يقوم بها ـ فتح الفم ، إدارة الرأس إلى هنا وهناك ، الصراخ ـ ليست إلا انطلاقات لنسق من الحركات التي تترابط مع أواليات غريزية مناسبة .

إذن فالمولود الجديد يعيش في هذه الفترة بصورة رئيسية على أساس نشاطه الانعكاسي والغريزي . وهو عند إرضاء جميع حاجاته ، مثل الطعام والحركة والحرارة ، يتبع كلياً المربين . واحتكاك المواليد الجدد بمحيطهم يصطبغ بالشكل المميز لارضاء حاجاتهم الأولية . وبصورة تدريجية ينضاف إلى ذلك إدراك بعض الإثارات الخارجية ، أي تنبيهات حسية مميزة ، التي يستجيب لها الوليد بدوره بمنعكسات لا شرطية مناسبة . بذلك يتهيأ تدريجياً الانتقال إلى نوع جديد من الصلة المتبادلة مع المحيط .

في هذه الميادين من إرضاء الحاجات الأولية وبداية إدراك الإثارات الخارجية تجري اللقاءات الأولى بالنسبة للطفل مع المربين . هنا تفرض نفسها توقعات المربين

---

2) لدى عرض مراحل التطور الافرادية سوف ألازم ـ من بين ما ألازم ـ أقوال بوشوفيتش : الشخصية وتطورها في سن المدرسة ، برلين 1970 .

الجنسانية الطابع . هنا يبدأ إشراط(*) الطفل . هنا تُغرس القدرات والخصائص الجنسانية ، وتُلقن التجارب الجنسانية المميزة .

2 ـ الأهمية العامة للإثارة اللمسية والحسحركية وعواقبها والمعاملة الجنسانية المميزة للمولود الجديد

في أسابيع العمر الأولى تكون بشرة الطفل هي العضو الأساسي لا ستقبال المثيرات الحسية (مثيرات الحواس) . بالتالي فإنه في هذه الفترة تكون ،قبل كل شيء ، الإثارة اللمسية (المتعلقة بحاسة اللمس) والحسحركية (الإحساس بالحركة) ذات شأن (إلى جانب تناول الطعام) . وقد تقصى كاسلر (1965 ، 1968) إلى جانب كثير من الباحثين[3] الآخرين ، في تجارب اختبارية أهمية الإثارة اللمسية . كتب يقول :

(*) Conditioning إشراط : عبارة عن عملية اختبارية أو معايشة حياتية يتم من خلالها إحداث استجابة معينة تجاه مثير آخر غير المثير الأصلي أو الطبيعي . ويسمى المثير البديل مثيراً شرطياً ، وبالتالي تسمى الاستجابة له استجابة شرطية باعتبارها استجابة متعلمة . منذ بافلوف يستند كثير من الباحثين ، من أجل تفسير نشوء أو تعلم أنماط السلوك ، على موديل الاشراط أو الاستجابة الشرطية . ـ ب . ع ، استناداً إلى : دريغر / فروليش : قاموس علم النفس ، د . ت . ف ، ميونيخ 1970 .

(3) Ourth and Brown: Inadequate mothering and disturbance in the neonatal period, child Development 1961, 32,p.287–295.

Rashkis and Singer: The psychology of schizophrenia, in: Arch. Gen. Psychiat. 1951, 1,p. 404–416.

Casler,L: The effects of extra tactile stimulation on a group of institutionalized infants, in: Genet. Psychol. Monogr. 1965, 17,p. 137–175

The effects of supplementary verbal stimulation on a group of institutionalized infants, in: J.Child Psychol. Psychiat. 1965,6,p. 19.27..

Perceptual deprivation in institutional settings, in: 6. Newton J.s. Levine, Early experience and behavior, 1968,p. 573–626.

« كانت مجموعة من أطفال الملاجىء تنال لمدة 10 أسابيع يومياً 20 دقيقة إضافية من الإثارة اللمسية . خلال هذه الفترة استطاعت المجموعة أن تتوصل إلى زيادة معتبرة في قدارتها المعرفية (المتعلقة بالمعرفة والإدراك) والاجتماعية أكثر من المجموعة المقارنة التي لم تجر إثارتها »[4] .

إذن ، إذا ما أثير الأطفال بعيد الولادة لمسياً ، فإنهم ينالون شروطاً أفضل لتطوير (مبكر) قدرات معرفية واجتماعية . وإذا لم يحصل ذلك ، أو إذا حصل بقدر ضئيل ، فإنهم ينالون شروطاً أسوأ لتطوير هذه القدرات . هذا يعني ، يحتمل ـ تبعاً لمجرى الإثارة اللاحقة ـ أنهم لن يستطيعوا تطويرها إلا متأخرين أو بصورة أقل بروزاً .

وفي الحقيقة توجد عدة أبحاث حول الأهمية العامة للإثارة اللمسية ، ولكن ـ حسب علمي ـ لا توجد سوى دراسة واحدة لمسألة الإثارة اللمسية الجنسانية المحتملة . تلك هي دراسة هـ . أ . موس[5] . تبين هذه الدراسة أن الأمهات يأخذن المواليد الصبيان في سن ثلاثة أسابيع (تاريخ الرصد) من السرير ويحملنهم خلال 8 ساعات وسطياً 27 دقيقة أكثر مما يفعلون مع البنات بنفس السن . هذا الفرق يستمر ، وفي سن ثلاثة أشهر (تاريخ الرصد الثاني) يكون في الحقيقة أقل ، لكنه يبلغ على كل حال 14 دقيقة في كل 8 ساعات لصالح الرضع الذكور . أغلب الظن ، إن الأمهات المشمولات بالبحث قد أدهشتهن هذه النتيجة ، ولم يكنّ ليعين أنهن يفضلن الصبيان على هذا المستوى . أما الآباء فلم تجر دراسة سلوكهم في هذا المضمار حتى الآن . يظن ـ إنما يجب دراسة ذلك ـ إن سلوكهم مشابه لسلوك الأمهات ، بل ربما أكثر بروزاً . فقد أظهرت دراسات[6] مستجدة لمراحل تطور أخرى ، أن سلوك الآباء فيما يخص التربية

---

4) الاستشهاد مأخوذ عن : اورزولا لير ، دور الأم في جمعنة الطفل ، في : تطبيق علم النفس الاجتماعي ، المجلد 3 ، دارمشتات 1974 ، ص 37 .

5) هـ . أ . موس (1970) .

6) ايكرت توم : موقف الأهل تجاه دور الأم على مجرى الحياة المدرسية للبنات ، ميونيخ 1972 .

على الأدوار الجنسانية أكثر محافظة من الأمهات .

والآن يمكن للمرء أن يسأل : هل يمكن بأي شكل أن يعتبر هذا السلوك اللمسي المختلف لدى المربين تربية مميزة جنسانياً ؟ . ربما كانت الأم بتصرفها ذاك تستجيب لسلوك الوليد ، إذ أن المواليد الذكور في العينة العشوائية لموس كانوا أقل نوماً من البنات وأكثر قبولاً للإثارة . ألا يحتمل أن يكون هذا هو السبب في المعاملة الجنسانية المميزة وليس النتيجة ؟ يقول موس بهذا الصدد : « تميل الأمهات فعلاً ، حتى بالنسبة لمواليد في نفس الوضعية ، إلى أن ينبهوا ويثيروا المواليد الذكور بإثارات لمسية أكثر مما بإثارات بصرية . وبالعكس يستجبن للمواليد الأناث بمحاكاة أكثر مما للذكور ـ بأن يرجعن لهن الحركات والأصوات »[7] .

من الواضح أن اختلاف سلوك الأمهات في مجال الإثارة الحسية ليس رد فعل ، بل هو فعل ، فالمربون يعاملون البنات والصبيان منذ ولادتهم بصورة متباينة ويتسببون بذلك اختلافاً في سلوك الجنسين . إنهم يستجيبون في هذا الميدان لسلوك الطفل بصورة متميزة ويؤثرون عليه بأن يدعموا أنواعاً معينة من السلوك ويعيقون أخرى .

وتتجلى الفروق المميزة جنسانياً في معاملة المولود الجديد في مجال حسي آخر ، في المجال الحسحركي(*) . وهو كذلك مجال هام جداً في الأسابيع الأولى بعد الولادة . والحرمان في هذا الميدان (مثلاً بواسطة حافظة الأطفال ، القندقة) يعيق أو يقيد الحركات (مثل الزحف والدبيب) ، وهو بالنسبة للطفل تقييد للحركة الضرورية جسمانياً . ويستتبع التقليل أو التقييد من الإثارة الحسحركية تثبيطاً للنشاط الجسماني ، تحديداً (إعاقة) للتطور في المجال المعرفي (الاثباتات لدى لير وكاسلر[8]) .

7) Evelyn Goodenough Pitchei, in: Stacey, Beread and Daniels: Sexism in American Education, in: and = Jill come Tumbling after, New York 1974.

Anne Oakley: Sex, Gender and Society, London 1972, P. 173 f.

*) الحسحركي = الحسي الحركي ، نسبة إلى الإحساس بالحركة . ـ ب . ع .

8) لير (1974) ، في المصدر المذكور . كاسلر (1965 ، 1968) ، في المصدر المذكور .

ويبرهن مورفي وغيره من الباحثين على وجود اختلاف مميز جنسانياً في معاملة الأطفال في المجال الحسحركي ، ويتحدث إذ ذاك عن « الحد من تفريغات الحركية القوية »[9] . فالطفل المقيدة حركته معاق في إدراكه لمحيطه ولا يستطيع أن يجمع من التجارب بالقدر الذي يتطلبه التطور الذهني الملائم .

إذن فالبنات المولودات حديثاً لا يلقين إجحافاً في مجال الإثارة اللمسية والحسحركية فحسب ، بل في كثير من الأحيان يلقين أيضاً تقييداً في حركتهن (« وإلا فإنهن يصبحن شرسات ! ») . هذه الإعاقة للرضع الأناث يمكن مثلاً أن تؤدي إلى التقليل من النشاط الانعكاسي الحركي ، فتصير البنات ويتصرفن بسلبية أكبر . بالمقابل ستؤدي زيادة الإثارة لدى الصبيان إلى زيادة النشاط الانعكاسي الحركي . فيصبح الصبيان أكثر حيوية . . .

من المؤكد أن الرضاعة ، إلى جانب هذه التأثيرات التحريضية الخارجية ، هي أهم حدث في مجرى الحياة اليومية للمولود الجديد . فهي تتكرر عدة مرات في اليوم (من خمس مرات إلى ست مرات) . لذلك من المهم جداً أن يجري البحث عما إذا كانت هناك فروق في ا لمعاملة عند الرضاعة أو في طريقة الإرضاع ، وإذا وجدت ، فما هي هذه الفروق . لقد درست برونيه وليزين[10] مجموعة من الرضع الإناث والذكور ، وركزتا اهتمامهما على ما يلي :

- الإرضاع من الصدر : نعم أم لا .
- الفطام : في أي وقت ومنذ متى الإطعام المختلط ، أي من القنينة والصدر .
- أمد الوجبات .
- أمد الاستراحات أثناء تناول الوجبات .

---

9) « limitation of vigorous motor discharges » .L .B . Murphy : The Widening World of childhood in Basic Books 1962 ,P.347 .

10) برونيه / ليزين (1965) في : إ . جيانيني بيلوتي : ماذا يجري للبنات الصغيرات ؟ ، ميونخ 1975 .

- تاريخ ابتداء الطفل بتناول طعامه بصورة مستقلة .
- الاضطرابات في الأكل والنوم .

لقد وجدت في جميع هذه المجالات وبوضوح فروق جنسانية مميزة . فقد تأكد للباحثين ، أن « 34٪ من الأمهات يرفضن إرضاع بناتهن من الصدر ، لأنهن يعتبرن ذلك عملاً قسرياً ، أو لأن عملاً آخر ، له الأفضلية عندهن ، يعيقهن عن ذلك »[11] . بالمقابل أرادت جميع الأمهات ، باستثناء واحدة ، إرضاع أبنائهن ! بهذا الصدد كتبت الباحثتان الفرنسيتان : « من المحتمل أن يكون هذا القرار قد تأثر بالقناعة الشائعة ، والصحيحة أيضاً ، بأن الرضع الذكور أقل مناعة وأضعف من الإناث . . . وبالتالي فهم أكثر اعتماداً على حليب الأم . ولكن من المحتمل أيضاً أن الأمهات يرغبن في رؤية أبنائهن أقوياء وصلبي العود قدر الإمكان ، أي أن يصبحوا رجالاً تامي الرجولة »[12] .

فحتى لدى هذا الحدث الأساسي ، وهو الإرضاع ، يُعامل الرضع الأناث والذكور معاملة متباينة ، أي يجري التأثير عليهم بصورة متباينة . ومن المؤكد أن هذا لا يحدث بصورة واعية ، بل الأرجح لا شعورياً .

ولا يتوقف الأمر عند أن البنات نادراً ما يرضعن من الصدر ، بل من المثير للانتباه أن أمد وجباتهن أقصر مما لدى الصبيان . فقد وجدت برونيه وليزين ، أن الصبيان في الشهر الثاني من العمر استغرقوا 45 دقيقة في تناول الطعام من الصدر ، بينما استغرقت البنات 25 دقيقة فقط . وتناولت البنات القنينة لمدة 8 دقائق ، بينما الصبيان لمدة 15 دقيقة . ويعود هذا الفرق في مدة الرضاعة لدى البنات والصبيان إلى تعدد الاستراحات التي تمنحها الأمهات للصبيان أثناء الرضاعة . يجري الحديث على الشكل التالي : الأطفال الصغار يمصون في البدء من ثلاث إلى أربع مرات ثم يستريحون بعدئذٍ من أجل اجتراع ما امتصوه . وبما أن فعل المصّ لا يحرك فقط عضلات الوجه

11) المصدر السابق ، ص 22 .

12) المصدر السابق .

والفم ، بل يوتّر كامل جسم الطفل الذي يشارك بالفعل بتمامه وكماله (مع توتر عاطفي معبر وبذل كبير للطاقة) ، لذلك فإن المصّ مجهد جداً للرضيع وكثيراً ما يضطره إلى استرداد الأنفاس واستجماع القوى . وتتحدد الاستراحات وأمدها بقدر استعداد الأمهات أو المربين ومشاركتهم العاطفية والنفسية في الرضاعة . إن ديناميكية المصّ والاجتراع يفهمها الإنسان البالغ ، فهي من ضمن إيقاعه أيضاً و « وظيفتها واضحة : المصّ والبلع . فتبدو له الاستراحة على أنها مضيعة للوقت دون فائدة ، على أنها كسل إرادي من قبل الرضيع (« إنه كسول جداً » ، هذا ما تقوله الأمهات غالباً لمجرد أن يرين المخلوق الذي يطعمنه استبدادياً)[13] » .

إن الاعتراف للطفل بحرية الاستراحة تعني الاعتراف به كمخلوق يتميز بايقاعه الخاص وبحاجاته الفردية . وبالتحديد في هذه الاعترافات الأولى ، غير الهامة ظاهرياً ، باستقلالية الطفل تتجلى مراعاة المربي .

يبدو أنه من المؤكد إلى حد بعيد ، أن المسرى المتسرع لوجبات الطعام لدى البنات الصغيرات يعود إلى الالحاح المتكرر من قبل المربين . إنهم ينذرون بشتى الوسائل : « عجّلي ! » . وهكذا يتبعون جزئياً طريقة جد قمعية تجاه البنت الصغيرة : مجرد تقصير الاستراحات ما بين الاجتراع والمص الذي يليه . « وإذا ما شربت الطفلة ببطء ، يجري هزها ، قرصها في خدها ، وأحياناً يجري إرضاعها في وضعية اعتباطية غير مريحة لا يُسمح لها منها فكاكاً »[14] . وكثيراً ما يسدون لها أنفها أثناء الاستراحة ، كي تضطر إلى فتح فمها ثانية فيستطيعون دسّ مصاصة القنينة في فمها .

إن الأم تسمح بهذه الاستراحة للصبي أكثر مما للبنت . فالأمهات يعترفن للصبي بايقاعه الخاص به ، ولا يتقبلنه من البنت . وتظن عالمتا النفس الفرنسيتان أن لهذا علاقة بالاحترام اللاشعوري لدى النساء تجاه السلطة الذكورية . هذا يعني ، أن الأم ترى في وليدها الصغير الرجل وتعترف له بارادته الخاصة ـ لكنها تقاوم إرادة البنت .

13) المصدر السابق ، ص 25 .

14) المصدر السابق ، ص 26 .

وليس من الصعب اجتذاب الأطفال في هذه السن لأن يعجلوا في تناول وجباتهم . وتقسر البنات الصغيرات منذ الأسابيع الأولى من حياتهن للتدرب على ذلك . وبعد حين من الزمن لا يعود هذا القسر البراني ضرورياً ، إذ تكون البنت قد استبطنت هذا المتطلب ، وأصبحت سريعة . وتستخلص برونيه وليزين من ذلك ، أن الحاجة إلى ترويض الطفل يكون أقوى لدى الأم ، عندما يتعلق الأمر بالبنت . أما الصبي ، ومع أنه صغير وبلا مقاومة ، فهو رمز السلطة التي تُخضع لها الأم نفسها .

والبنات لا يرضعن أقل وبعجلة أكبر فحسب ، بل يجري فطامهن على العموم أيضاً أبكر من الصبيان . تقول برونيه وليزين بهذا الصدد : « جميع البنات كنّ في الشهر الثالث من العمر مفطومات تماماً . وابتدأ الاطعام المختلط (من الصدر والقنينة) لديهن في سن الشهر والنصف . هذا في حين أن 30٪ من الصبيان رضعوا ما يتجاوز الأربعة أشهر ولدى 20٪ منهم استمر الاطعام المختلط حتى الشهر السادس من العمر[15] . هذه النتائج تجد دعمها فيما توصلت إليه كذلك الدراسة النرويجية المستشهد بها سابقاً[16] . فالبنات يجري فطامهن من القنينة في سن الـ 12 شهراً ، والصبيان في سن الـ 15 شهراً .

وثمة عارضة أخرى تشير إلى تدريب البنات الصغيرات بصورة أشد من الصبيان الصغار . فقد لاحظت برونيه وليزين ، أن البنات يتناولن طعامهن بصورة مستقلة أبكر من الصبيان ، بالتحديد « ما بين 24 و 25 شهراً ، بينما أكثر صبيان مجموعة البحث يلقون مساعدة في الأكل حتى السن ما بين 4 و 5 سنوات »[17] . فمن الواضح أن الأمر لا يدور حول فروق طفيفة ، بل حول إجحاف أساسي وتحويلات في التطور مع عواقب وخيمة على تطور البنات الصغيرات .

15) المصدر السابق ، ص 23 .

16) إكهوف / غاوسلا ، في المصدر المذكور .

17) بيلوتي (1975) ، المصدر المذكور ، ص 30 .

على جانب الصبيان تتأمن منذ البداية وتتدعم استقلالية نسبية[18] . وعلى جانب البنات تلقى هذه الاستقلالية مقاومة ، ويفرض التكيف والخضوع لإرادة غريبة . ومن المثير للانتباه ، أن المهارات والخصائص « المخصوصة بالبنات » تخفف عبء العمل عن المربين ، إذ يتوقف إطعامهن أبكر من الصبيان ، ولا يبللن أقمطتهن بقدر الصبيان ، ولا تتوجب رعايتهن مثل الصبيان لدى القيام بنشاطات بدنية حيوية .

إن البنات الصغيرات لا تجري في هذه السن إعاقتهن عن تطوير شخصيتهن فحسب ، بل يتضررن . هذه الحقيقة تتبين مثلاً بوضوح في اضطرابات الأكل والنوم . وتخبرنا برونيه وليزين حول « صعوبات عند الأكل » لدى 94٪ من مجموع البنات اللواتي شاركن في الاستفتاء (الأكل ببطء شديد ، تقيؤ ، مزاجية) ، بينما بلغت النسبة لدى الصبيان 40٪ فقط . وتظهر الاضطرابات لدى البنات منذ الشهر الأول من العمر . وتبقى شهيتهن ضعيفة حتى الشهر السادس من العمر ، بينما يظهر هذا النوع من الاضطرابات لدى الصبيان في وقت متأخر عن ذلك بكثير[19] .

ب ـ في عمر الرضاعة ـ نتائج جنسانية أولى

نحن نعلم الآن مدى أهمية الإثارة الحسية بالنسبة لتطور الطفل . ففي مراحل التطور المتطلبة للإثارة الحسية يكون مفعول هذه الإثارة على مجمل تطور الطفل مؤاتياً بقدر شدة الإثارة التي تلاقيها المجالات الهامة . وهنا علينا أن نطرح الأسئلة التالية :

ـ كيف يظهر الوضع العام لتطور الطفل أثناء الانتقال إلى سن الرضاعة ، وفي

---

18) انظر أيضاً لير (1972) ، ص 913 : وقد وجدت أبحاث أخرى ، أن أمهات البنات كثيراً ما أطعمن طفلتهن حسب برنامج زمني ثابت (وبذلك كن يعاقبن الطفل على « عناده » ويقمعن هذا العناد) ، في حين أن أمهات الصبيان غالباً ما طبقن طريقة « free-demanding-feeding » (وبذلك كن يكافئن الطفل على عناده ويشجعنه على ذلك) .

19) بيلوتي (1975) ، المصدر المذكور سابقاً ، ص 30 .

سن الرضاعة ؟

ـ ما هي عواقب إثارة المجالات الهامة الخاصة بكل مرحلة ؟

ـ هل توجد في هذه المجالات فروق مميزة جنسانياً في معاملة البنات والصبيان ؟

1 ـ استعراض عام لهذه المرحلة من التطور

يختلف الرضيع عن المولود الجديد في حياته الشعورية ، بشكل خاص . ففي نهاية الشهر الأول وبداية الشهر الثاني تحل انفعالات ايجابية محل حالة اللامبالاة . وتتجلى هذه الانفعالات فيما يسمى عقدة الإحياء . وتبعاً للعديد من الأبحاث يتميز الانتقال إلى سن الرضاعة قبل كل شيء بالتناوب ، الذي يمكن تحديده إلى حد ما بوضوح ، ما بين حالتي النوم والصحو[20] . وكثير من المؤلفين يصفون ذلك بأنه انفكاك فيزيائي ، نوع من التكوين الجديد (فيغوتسكي[21]) ،حيث تنشأ حياة نفسية فردية .

من الناحية الفيزيولوجية يترابط الانتقال مع درجة معينة من تطور المحلل البصري[*] ، ومن الناحية النفسانية مع تطور حاجة جديدة ، وهي الحاجة إلى انطباعات جديدة عن العالم المحيط . ويعقب ظهور هذه الحاجة تحديد واضح للحدود ما بين حالتي النوم والصحو . وتتخذ حالة الصحو طابعاً ايجابياً وهادفاً . وتتميز حالة الصحو الايجابية بمَعْلَمين أساسيين : أولاً بادراك مثيرات العالم الخارجي ، ثانياً بالسرور الذي يتسبب به الادراك (ظهور الفرح) .

وينشأ مع الحاجة إلى انطباعات جديدة ، في المقام الأول ، نشاط هادف لدى

---

20) كما يرى بوشوفيتش : الشخصية وتطورها في سن المدرسة ، برلين 1970 .

21) فيغوتسكي ، الاستشهاد نقلناه عن بوشوفيتش (1970) ، المصدر المذكور أعلاه ، ص 143 .

*) analyzer المحلل : هو العصب المستقبل وملحقاته العصبية المركزية . ـ ب . ع . نقلاً عن موسوعة علم النفس لعبد المنعم الحفني .

الطفل ، وهو البحث الواعي عن انطباعات جديدة . ويؤكد فيغورين[22] ، أن النشاط الحسي يزداد بسرعة ابتداء من الشهر الأول من العمر . إن الرضيع يتأمل في حالة الصحو على الدوام تقريباً شيئاً ما .

تنشأ الحاجة إلى انطباعات جديدة في الاسبوع الثالث إلى الخامس من العمر ، لكن في شروط مخبرية يمكن إثبات هذه الحاجة في وقت أبكر من ذلك بصورة معتبرة . فهي تنتج عن تطور نضج الوظيفة العصبية وتترابط مع القدرة على التركيز البصري ، الذي هو بدوره نتيجة لتطور نضج الوظيفة ونشاط الرؤية العصبي . بهذا الصدد كتب فيغورين : « إلى جانب الحاجات العضوية هناك أيضاً حاجة لاستخدام المحلل البصري . وتتجلى هذه الحاجة في استجابات ايجابية ، مكتملة على الدوام من خلال تأثيرات خارجية ، منصبة على استقبال وتخزين وكذلك على تصعيد المثيرات الخارجية . على هذا الأساس ، وليس على أساس انعكاسات غذائية محتومة ، تنشأ وتتثبت استجابات ايجابية وانفعالية لدى الطفل ويجري تطوره العصبي ـ النفسي »[23] .

وبطبيعة الحال يبقى الرضيع مرتبطاً بالمربين . ويتحقق نشاطه ، إما مباشرة عن طريق المربين أو بالاشتراك معهم . ومجمل التطور (ابتداء بارضاء حاجات عضوية بسيطة حتى الحاجة إلى انطباعات جديدة ، إلى إثارة حسية) يتحقق عن طريق المربين . هنا ينعكس ايضاً التوقع المميز جنسانياً لدى هؤلاء المربين في معاملة وتطوير البنات والصبيان . فعلاقة البنات الصغيرات والصبيان الصغار بمحيطهم متعلقة بصلاتهم المباشرة مع المربين ، هي مشتقة منها .

2 ـ الأهمية العامة للإثارة البصرية والسمعية وعواقبها

للبرهان على أهمية الحاجة إلى انطباعات جديدة يستشهد بوشوفيتش بمجموعة من

---

22) فيغورين ، لدى بوشوفيتش ، ص 144 .

23) المصدر السابق .

المؤلفين السوفييت الذين رصدوا لدى الأطفال الرضع أنماط السلوك التي يمكن أن تفسر على أنها تعبير عن هذه الحاجة . وقد كان مؤثراً وصف ستشيلوفانوف لطفل في هذه المرحلة : « إن الانطباع البصري ذو مفعول مهدىء على الطفل . ويستطيع المرء أن يهدأ طفلاً باكياً في هذه السن (عمره شهر واحد . ـ أ . ش .) ، بأن ينقله مثلاً من السرير إلى الطاولة . فالطفل يحس بالتغيير ، الذي قد يكون إلى مكان أفضل إضاءة ، ويتجول بعينيه من شيء إلى آخر ، ويتوقف عن البكاء . ويستطيع المرء أن يبقي طفلاً بعمر شهر حتى شهر ونصف في حالة صحو هادئة دون أن يغير مكانه : يكفي المرء أن يحول نظر الطفل إلى شيء مثير أو ملون أو لمّاع ، يستطيع الطفل أن يراه من موقعه بصورة مريحة . وإذا ما توقف الطفل عن تأمل هذا الشيء ، فإنه غالباً ما يعود إلى البكاء ، ولكن إذا حول الطفل انتباهه من جديد إلى لعبة أخرى ، فإنه يهدأ ثانية ويتطلع إليها لفترة طويلة وبصورة مركزة »[24] .

ويتابع ستشيلوفانوف القول : « تنتج الانطباعات البصرية لدى الطفل لأول مرة شعورا بالمسرة . وتظهر أولى مؤشرات الشعور بالمسرة ، التي تتمثل في الضحك أو اللعبطة باليدين والقدمين . عادة ، عندما يتطلع الطفل إلى شخص بالغ وينصت إلى صوته . كذلك يسر الطفل لدى النظر إلى أشياء ملونة ، لماعة ، غير أن السرور هنا يظهر بوضوح أقل »[25] . وبنفس القدر تكون بالتالي أهمية الإثارة البصرية والسمعية كبيرة ، وكذلك أهمية الأشخاص الذين يتسببون في هذه المثيرات البصرية والسمعية أو الذين تجري هذه المثيرات عن طريقهم . وبخصوص أهمية الإثارة السمعية قام كاسلر واروين[26]في عام 1960 بدراسات ميدانية لمجموعات مقارنة من أطفال الملاجىء ،

---

24) ستشيلوفانوف ، لدى فيغوتسكي ، ص 141 .

25) المصدر السابق .

26) كاسلر (1965) ، في المصدر المذكور سابقاً .

Irwin,O.C:Infant speech:effect of systematic reading of stories,in:J.Speech Hear.Res. 1960,3,p.187-190 .

فأمكن لهما أن يبرهنا أنه بعد عشرة أسابيع من الإثارة الكلامية (وحتى بأصوات مرددة ميكانيكياً) يمكن إثبات ارتفاع واضح في التطور اللغوي . كما أن دراسات أجراها رازران في عام 1961 وجينسن في عام 1967[27] توصلت إلى نتائج مشابهة .

إن الحرمان البصري ذو مفعول مشابه للحرمان الحسحركي ، وذلك من حيث تقليص النشاط . وهذا ما تبرهن عليه عدة دراسات : « بالذات أسرّة الأطفال الصحية بشكل متميز ، المحاطة بألواح بيضاء من كافة الجهات ، تعيق أية إثارة بصرية . في حين أنه على غاية من الأهمية بالنسبة للتطور العقلي أن يستطيع الطفل في أسابيع وأشهر العمر الأولى ملاحقة الحركات والمشاركة بها »[28] . (جنسن 1967 ، كاسلر 1968[29]) .

وقام وايت[30] في تجاربه بتوشيح أطفال رضع بمدفّىء نبضي أحمر ورفع بذلك إلى حد بعيد من سلوك الاستكشاف البصري لديهم ، فتسرع تطور الامساك بالأصابع لدى مجموعة أطفال التجربة حوالي الشهر بالمقارنة مع المجموعة المرصودة التي لم تجر عليها التجربة (انظر بهذا الشأن أيضاً راوه 1974)[31] .

إن الإثارة العصبية تساهم في تنمية القدرات البصرية وانطلاقاً من ذلك تؤثر على التطور الحركي والذهني تأثيراً كبيراً . فهل يتأثر في هذه المجالات الأساسية أيضاً البنات والصبيان تأثراً متفاوتاً ؟ حول ذلك لم أجد سوى دراسة وحيدة وهي الدراسة السابقة

---

27) G.Razran: The observable unconscious and the inferable conscious incurrent Soviet psychophysiology.in:Psychol. Rev.1961,86.p.81.147

A.R.Jensen:Learning in preschool years,in:Hartup,E. and Smothergill,N: The young child,1967 .

28) جنسين (1967) ، المصدر المذكور أعلاه .

29) كاسلر (1968) ، المصدر المذكور سابقاً .

30) While,R.W.: Motivation Reconsidered: The concept of Comptence,in: Psychol.Review. 1959.66.p.297−333 .

31) هـ . راوه : الأسرة كشرط للجمعنة ، مخطوطة غير منشورة ، فونكل كولّيغ 1974 . لدى : لير (1974) .

الذكر لموس[32] .

3 ـ المعاملة المميزة جنسانياً في سن الرضاعة ونتائجها الأولى

بعد أن كشفت عن أهمية الإثارات المختلفة في هذه المرحلة من العمر ، أود الآن أن أبين مدى معاملة الأطفال الصغار معاملة مميزة جنسانياً . هنا ، لن نستطيع الالتزام دائماً بالتقسيم إلى سن الرضاعة وسن الحضانة ، مع أننا لم نضع هذا التقسيم لمجرد مساعدتنا بالبحث ، إذ أن الدراسات المعتمد عليها لا تحافظ على مسارها ضمن هذا المضمار ، ثم إنه يجب أن تذكر بالارتباط مع سن الرضاعة عواقب ابتدأت في هذه السن ولكن تأثيرها ظهر بعدئذ في سن الحضانة .

في هذه الفقرة سيدور الموضوع في البدء حول الفروق في الإثارة الحسية والحسحركية (بصري ، سمعي ، لمسي) ، وكذلك حول « التربية على النظافة » وأولى اللعب المميزة جنسانياً .

ـ المعاملة المميزة جنسانياً في المجال اللمسي والبصري والسمعي والحسحركي

تتقصى الدراسة المستشهد بها ل هـ . أ . موس مسألة الإثارة المتفاوتة وتصل إلى نتائج هامة حول فرقين كبيرين في معاملة البنات والصبيان : وهذا بالنظر إلى كلا المتحولين المدروسين التاليين : « الأم تنبه / توقظ الطفل »(*) (هذا يعني أن الأم تقدم للطفل إثارة لمسية وبصرية وتحاول رفع مستوى الفعالية لديه) و « الأم تقلد الطفل »(**) (هذا يعني أن الأم تكرر سلوكاً ـ عادة بالألفاظ ـ مباشرة بعد أن لاحظته لدى الطفل) . هنا يتبين (لدى حالة نشاط عامة مراقبة) ، أن الصبيان ينالون في المتحول

---

32) موس (1970) .

*) في الأصل :

« Mother stimulates / arouses infant » —B.A.

**) في الأصل :

« Mother imitates infant » .— B.A.

« الأم تنبه / توقظ » علامة أعلى بكثير من البنات ، في حين أن البنات ينلن في المتحول « الأم تقلد » علامة أعلى بكثير من الصبيان . هذا يعني أن البنات تجري في الحقيقة إثارتهن أكثر بكثير من الصبيان ، ولكن بشكل أن الأم تقوم بمحاكاة أصوات البنات نفسها . إنهن يرتددن على أنفسهن ، بينما تجري إثارة الصبيان بصرياً بصورة أقوى بكثير ـ وهذا في مرحلة من الحياة تحرز الإثارة البصرية فيها أهمية أكبر من الإثارة السمعية . حول ذلك كتبت انّي اواكلي : « هذه الإثارة السمعية ، التي تمارس على البنات أكثر مما على الصبيان ، هي على الأرجح ، إلى جانب غيرها من العوامل ، المسؤولة عن التفوق الكلامي اللاحق لدى البنات . ذلك لأن الإثارة السمعية المتميزة شرط هام للتطور اللغوي ، والإثارة السمعية المتكررة تنميه »[33] .

في هذه السن إذن تلقى البنات من الناحية الكلامية تشجيعاً أكبر ، لكن هذا التشجيع الكلامي هو في نفس الوقت أضيق من التشجيع الذي يلقاه الصبيان : إذ تنقل إليهم أصوات جديدة ، بينما يجري رد البنات على أنفسهن .

إلى جانب الإثارة المباشرة هناك ما تسمى الإثارة العرضية / غير المقصودة ، كما على سبيل المثال ، عندما ينتبه المربي إلى طفل معين أكثر من غيره أو يكثر من الجلوس بقربه (المتحول : « الأم تهتم بالطفل »[*]) . هذا « الحضور الزائد » للأم « هو نبع دائم للإثارة البصرية والسمعية والحسحركية والتقبّلية الذاتية »[34] . وقد دلت الدراسات على أن حضور الأمهات عند الصبيان أكثف بكثير مما لدى البنات .

وهناك أيضاً فروق في زمن النوم بين الجنسين . في سن ثلاثة أسابيع نامت البنات ، اللواتي شملهن البحث ، ساعة واحدة أكثر من الصبيان . وفي سن ثلاثة أشهر كان هذا الفرق ما يزال 41 دقيقة . هذا يعني : عندما يمضي الطفل زمناً أطول في

---

33) انّي اواكلي (1972) ، المصدر المذكور سابقاً ، ص 174 .

*) في الأصل :

« Mother attends infant » .–B.A.

34) موس (1970) ، المصدر المذكور سابقاً ، ص 304 .

حالة الصحو ، فإنّ هذا يزيد من تجاربه واحتكاكاته مع مربيه وعموماً مع محيطه ، وبالتالي يزيد من امكانات تعلمه . وهذا يسهل بدوره « التمييز الادراكحسي »(**) (تطور الادراك) ويحسن بالتالي نوعية تنظيمه المعرفي وعملية التطور العام . ثم إن تكرار أخذ الطفل من الفراش يقوي الإثارة العرضية . وهذا ما يحدث أيضاً لدى الصبيان أكثر مما لدى البنات .

وإذا ما جمعنا جميع هذه التفضيلات في هذه المرحلة من التطور ، التي ينالها الرضع الذكور والتي تتقوى وتتنوع مع ازدياد العمر ، عندئذ علينا أن نتحدث عن الإجحاف السافر بحق الجنس الأنثوي في سن الرضاعة ! هذا ويفرز هذا الاجحاف في الشهر الثالث من عمر الطفل أولى عواقبه .

بالتوافق مع تطور الرضيع يتغير سلوك الأم . إن للمعاملة المختلفة غالباً عواقب سلبية على البنت ، ولكن أيضاً عواقب ايجابية ، كما مثلاً في السلوك « العاطفي » (التوددي) . وقد وجد موس ، أن الأم تزيد لدى البنات بعمر ثلاثة أشهر من تشجيع « السلوك الاجتماعي » ، أي أنها تبتسم أكثر للبنت وتقلدها أكثر وتكثر من هزها وأرجحتها وحملانها . في نفس الوقت تقلص الأم هذا السلوك تجاه الصبي . بالإجمال يتغير سلوك الأم . فهي تقوم الآن بزيادة إثارة البنت في نفس المجالات التي كانت سابقاً تثير فيها الصبيان .

بالنسبة للصبي تبدأ منذ الشهر الثالث من العمر تنشئته إلى « صبي بحسب القالب » . فتقوم الأم بتحريض ودعم النشاط العضلي لدى الصبي . تضعه في مواقف يتوجب عليه فيها أن يستعمل عضلاته بشكل أنشط وتقدم له إثارة أكبر . أما بالنسبة للبنت ، التي بالمقارنة مع الصبي كانت قد أهملت في الأسابيع الأولى من العمر ، فتبدأ الآن في الشهر الثالث من عمرها التربية المركزة لجعلها « بنتاً بحسب القالب » ، التربية على السلوك الاجتماعي والذيلي والتوددي . ومن المثير للانتباه أن مراكز الثقل في إثارة

**) الإدراكحسي = إدراكي حسي ، ومنه التمييز الإدراكحسي :
Perceptual discrimination.–B.A.

البنت تقع دوماً بالتعارض مع حاجاتها ، بينما تقع لدى الصبي بالتوافق مع حاجاته .

ـ التربية الجنسانية على النظافة

في الشهر الخامس من عمر الطفل يطرأ فرق هام آخر في معاملة البنات والصبيان : وهو بالتحديد فرق في مجال التربية على النظافة . هنا أيضاً تسلك الأم سلوكاً متبايناً ، وهنا كما في الرضاعة ، تخضع البنات لتدريب مبكر جداً وقاس . وهنا كذلك يجري باكراً جداً تكييف وإخضاع البنات لرغبات ومطاليب المربين ، ضد ايقاعهن الخاص . فلا تراعى استقلاليتهن مطلقاً .

وقد لاحظت برونيه وليزين ، أن « الأمهات في هذه الحالة أيضاً أقسى مع بناتهن منهن مع صبيانهن »[35] . فمتوسط العمر الذي تبدأ فيه التربية على النظافة يبلغ لدى البنات بعمر خمسة أشهر (ثمانية أشهر) ولدى الصبيان بعمر ثمانية أشهر (ـ 12 / 15 شهراً) . وهكذا تظهر المصاعب (الامتناع ، العبث) لدى الجلوس على المبولة من قبل البنات في السن ما بين 15 ـ 18 شهراً ، ومن قبل الصبيان في السن ما بين 24 شهراً وأربع سنوات . فأمد هذه المصاعب قصير لدى البنات ، بينما تظهر لدى الصبيان أكثر وفرة وعنفاً .

بهذا الصدد كتبت برونيه وليزين : « كما أن الأمهات أكثر تسامحاً مع الصبيان ، عندما يفعلونها في أقمطتهم . والناس يتقبلون كون الصبيان ، حتى الكبار منهم ، « أوخاماً » . بينما ينتظرون من البنات أن يؤدين حاجاتهن بصورة غير ملحوظة قدر الإمكان ، وأن يكن نظيفات . وبالطبع يبقى هذا النوع من الرقابة الذاتية مطلوباً من البنات بعد هذه السن . فهذا الهدف يحوم منذ البداية أمام العينين ، وهذا عامل أساسي لأن تحرز البنات فيما بعد السلوك المرغوب » . وإذا كان أحد الصبيان قذراً ومهملاً ، فهذا من طبيعته . أما إذا كانت إحدى البنات هكذا ، فإن ذلك مزعج

---

35) بيلوتي (1975) ، المصدر المذكور سابقاً ، ص 33 .

ويفسره الناس على أنه قصد شرير وضعف في الإرادة : « إنها تفعل هكذا بقصد »[36] .

بل أيضاً أين يحدث هذا . ـ ذلك بالتحديد في مجالات تكون فيها المهارة المبكرة لدى البنت الصغيرة موفّرة للعمل بالنسبة للمربين . فعندما تبكر البنت في الأكل لوحدها ولا تعود تبلل أقمطتها ، فمن الواضح أن ذلك يستدعي عملاً أقل . ويتكشف نفس الميل لدى ارتداء الثياب دون مساعدة : هنا أيضاً تعتمد البنات الصغيرات على أنفسهن أبكر بصورة معتبرة . وأكثر الخطوات تقدماً بهذا الخصوص يجدها المرء ما بين السنة والنصف والثلاث سنوات ونصف من العمر .

هذه المهارات المبكرة لدى البنات الصغيرات هي إذن على العموم موجهة لتسهيل العمل على المربين وهي في الوقت ذاته بشائر المهارات المنتظرة فيها بعد من النساء : المسؤولية عن الناس الذين يعشن معهم ، النظافة الخ .

ـ اللعب المبكرة المميزة جنسانياً

بالرغم من أن القسم الأكبر من أدوات اللعب في هذه المرحلة ما تزال « حيادية » ، مع ذلك يبدأ منذ الآن ـ ضمن « أدوات اللعب الحيادية » هذه ـ التفريق الجنساني النموذجي بالارتسام . هكذا هو الأمر لدى اختيار المعلقات التي يعلقها الكبار فوق سرير الرضيع من أجل الإثارة البصرية (كذلك لدى ساعات اللعب المعلقة ولدى اختيار ألوان غرفة الأطفال أو لباسهم) . وقد اكتشفت إلينا جيانيني بيلوتي[37] ، أنه توجد فروق جنسانية حادة لدى اختيار المعلقات ، وذلك في سن شهر ونصف ، حيث في هذه السن بالذات تكون الإثارة البصرية ذات أهمية عظيمة . (إن تأثير المعلقات جسيم ، إذ أنها تعلق فوق السرير) .

وتشير بيلوتي إلى أن اختيار المعلقات يجري من ناحية اللون والشكل بصورة مميزة

---

36) المصدر السابق ، ص 34 .
37) المصدر السابق ، ص 72 .

جنسانياً ، فيتحرك فوق اسرة الرضع الإناث : أزهار ، ملائكة ، ندفات ثلج ، دمى صغيرة ، وكذلك أحياناً ما تسمى معلقات حيادية مثل : عصافير ، بطات ، لقالق ، سمكات ، دجاجات ، حيوانات سيرك ، بالونات ، وأشكال هندسية ملونة . وفوق أسرة الرضع الذكور تتحرك جميع الأشياء التي سيلعبون بها عندما يصبحون فتياناً والتي سيستعملونها أو يسعون إليها عندما يصبحون رجالاً : طيارات ، سفن ، سيارات ، أحصنة الخ .

ويجدر بالذكر أن هذه الفروق المميزة جنسانياً نجدها أيضاً لدى الأشياء المثيرة سمعياً ، فالحلقات والخشخيشات والأجراس الخ . تعلق فوق مهود الرضع ، وقد خضعت بصرامة لقانون الزهري والأزرق(*) . فحتى في هذا العمر الغض يطرح لدى اختيار اللعب السؤال عن الجنس ، سؤال يصبح مع ازدياد العمر دائماً أكبر وأهم .

وفي الشهر الرابع حتى الخامس من العمر ، حيث يبدأ البنات والصبيان يحتكون بالأشياء بصورة أكثر فاعلية ، يجري اختيار هذه الأشياء بصورة مميزة جنسانياً . فتوضع في أسرة البنات إلى جانب الدبدوب ، وهو حيادي جنسانياً ، وإلى جانب حيوانات من القماش والمطاط ، الدمى بصورة خاصة . وما تسمى الدمى « الأصلية » ، وهي معروفة بكونها « أنثوية » ، تبقى مخصصة للبنات ، بينما غالباً ما تحظّر هذه الدمى على الصبيان حتى في أغضّ العمر[38] .

وهنا يظهر لأول مرة ما سيصبح فيما بعد واضحاً جداً : في الحقيقة يسمح للبنات باللعب بعض الحين « بلعبات الصبيان » ، لكن الصبيان لا يسمح لهم أبداً تقريباً اللعب « بلعبات البنات » . ذلك لأن كل ما يخص الدور « الذكري » ، يوضع كمعيار ، ويمكن للبنت أيضاً بعض الحين أن تطمح إليه . إنما كل ما يخص الدور « الأنثوي » يعتبر ناقصاً ، ولذلك فهو مرذول بالنسبة للصبيان .

---

*) اللون الزهري للأطفال الأناث واللون الأزرق السماوي للأطفال الذكور . وهو قانون اجتماعي ظاهر للعيان في ألمانيا . ـ ب . ع .

38) بيلوتي (1975) ، ص 73 .

ـ نتائج المعاملة المميزة جنسانياً في سن الرضاعة والمرحلة المبكرة من سن الحضانة

في هذه المرحلة من التطور يبدأ علماء النفس ، والتقدميون منهم أيضاً ، بدراسة الطفل بصورة مكثفة لأول مرة من حيث أنماط السلوك المميزة جنسانياً ، واعتماداً على استجابات الطفل في هذه المرحلة ، التي ما تزال نسبياً مبكرة ، يبدأون بالحكم على ما هو « أنثوي بالفطرة » و « ذكري بالفطرة » . وغالباً ما يكون رصدهم على مستوى وصف أنماط السلوك صحيحاً . لكن الخطيئة الفادحة تكمن في تفسير أسباب أنماط السلوك المميزة جنسانياً . فما يعدونه سبباً ـ أي سلوكاً « أنثوياً » أو « ذكرياً » بمعنى « أنوثة » أو « ذكورة » طبيعية ـ ليس سبباً بل تبعة لتأثيرات مميزة جنسانياً .

لقد درس غاراي وشاينفلد[39] بناتٍ وصبياناً في سن 14 شهراً من حيث ميلهم إلى المؤثرات البصرية أو السمعية . فأحضروا لهؤلاء الرضع مجموعة من الأشياء واسترعيا انتباههم بطريقتين اثنتين : مرة بإثارة بصرية إضافية (بدلاً من دوائر بيضاء عادية ، أظهرا لهم شكلاً ملوناً شيقاً) ، ومرة بإثارة سمعية (صوت رخيم لمتحدث غير مرئي) . النتيجة : كان الصبيان أكثر انتباهاً للإثارة البصرية ، والبنات كن أكثر انتباهاً للإثارة السمعية . من ذلك تستنتج مثلاً مجلة « إلترن »(*) التي تحدثت عن هذا الاختبار (وربما استنتج ذلك أيضاً غاراي وشاينفلد) : من المحتمل جداً أن يكون للاهتمام الأنثوي بأصوات المتحدث علاقة بالاهتمام البالغ للبنات بالناس ، وهو أمر فطري . من ثم يحاول الباحثان إثبات هذا التفسير عن طريق اختبار آخر . فقد عُرضت على بنات وصبيان بعمر 6 أشهر رسوم وتصاوير لأشياء ووجوه ، وكانت النتيجة : تفرجت البنات على صور الأشخاص مدة أطول مما على صور الأشياء . أما الصبيان فكانت

---

39) غاراي وشاينفلد (1968) .

*) Eltern = أبوان أو أهل . مجلة أسبوعية تصدر في ألمانيا الغربية ـ ب ع .

استجاباتهم معكوسة . يضاف إلى ذلك أنهم أصبحوا من صورة إلى أخرى أكثر حيوية ، بينما تراخى انتباه البنات بسرعة[40] .

إذن فالصبيان يهتمون منذ هذه السن بما يرونه أكثر مما يهتمون بما يسمعون . (وهذا هو ، برأي الباحثين الأميركيين ، السبب في أن الصبيان يحققون فيما بعد نتائج أفضل من البنات في جميع الاختبارات التي يطلب فيها حل مسائل صورية صعبة) . بالمقابل لا يكون سمعهم نامياً بقدر سمع البنات . وبما أن اللغة تتطور سوية مع حسّ السمع أو مع إثارته ، لذلك فإن البنات يظهرن اهتماماً أكثر بروزاً في ميدان اللغة أيضاً .

إن غاراي وشاينفلد (وآخرين) يتقصون حقاً في أبحاثهم الفروق الجنسانية بعيداً إلى الوراء في عملية الجمعنة ، ولكن ليس بعيداً بما فيه الكفاية . وهكذا يحدث أن يعتبروا ما يظهر باكراً جداً من تبعات المعاملة المميزة جنسانياًأسباباً ، أي فروقاً جنسانية فطرية . غير أن أبحاث موس ، التي تنطلق من زمن أبكر بكثير ، تشير إلى أن هذه « الفروق » المثبتة باكراً هي نتيجة المعاملة المميزة جنسانياً التي كانت قد مورست على الأطفال في زمن أبكر بكثير من ظهور الفروق المذكورة .

وقد درس غولدبرغ وكاغان ولويس[41]الفروق المميزة جنسانياً في معاملة الرضيع ابتداء من الشهر السادس من عمره . فأثبتوا أن الصبي تعاد تربيته في هذه السن بصورة تدريجية من « سلوك الطريقة المُقرِّبة »(*) (كما يطلق لويس على اللمس المتكرر ، المداعبة ، الحمل على الذراعين ، الهدهدة ، التقبيل ، حمل الطفل والمشي به) « إلى سلوك الطريقة المُبْعدة »(**) . منذ الشهر السادس ، على وجه الخصوص ، تنتقل الأم

---

40) غاراي وشاينفلد (1968) .

41) Goldberg and Lewis: Play behavior in the one – year old infant: early sex differences in: Child development 1969,40,p 21 – 32

*) Proximal mode behavior . – B.A.

**) distal mode behavior . – B.A.

انتقالاً شبه تام إلى « سلوك الطريقة المبعدة » . وهذا ما يتناسب مع الاستقلالية الفيزيائية الكبيرة نسبياً المتواجدة لدى الطفل في هذه المرحلة .

و « سلوك الطريقة المبعدة » هذا ، الذي يصبح هاماً بالنسبة للتطور العام منذ هذه المرحلة بالذات ، لا يطبق على البنات الصغيرات . بالعكس : بعد أن كانت البنات في الأسابيع والشهور الأولى من عمرهن يلقين على الغالب تجاهلاً ، تجري منذ الشهر الثالث تقريباً ، وخاصة منذ الشهر السادس ، معاملتهن بصورة مشددة بحسب « سلوك الطريقة المقربة » . ففي مرحلة تتطلب أصلاً استقلالية أكبر و « انفكاكاً » عن المربين ، يجري تقييد البنات بهؤلاء المربين (ويجري الإبقاء على ذلك بصورة متشددة حتى نهاية السنة الثانية من العمر تقريباً) .

وهذا يعني ، أنه في المرحلة التي يتطلب فيها التطور العام مجالاً أكبر للفعل والحركة ، فإنه يجري التضييق على البنات ، فتعاق استقلاليتهن الفيزيائية والنفسية . فالبنات يُربون على التعلق بالمربين (« إن البنات يتعلقن دائماً بأذيال ثوب الأم ») ، أما الصبيان فيربون الآن على استقلالية أكبر (بحسب « قولبية الصبيان ») من الناحيتين الفيزيائية والنفسية ، يُربون بمعزل عن الأشخاص .

وتظهر هذه النتيجة أيضاً في بحث لغولدبرغ وكاغان ولويس[42] ، الذين درسوا بنات وصبياناً بعمر 13 شهراً في « حالة اللعب الحر »[*] . لقد رصدوا سلوك اللعب لدى هؤلاء الأطفال ، ووجدوا فروقاً خطيرة . فعندما كان يجري إبعاد البنات من قبل أمهاتهن ، كن يرجعن إليهن أسرع مما يفعل الصبيان . وإذا ما استمر إبعادهن ، فمن أكثر من الصبيان بمحاولات رجوع فيزيائية وكذلك بصرية . وقد لمسن أمهاتهن وسطياً لمدة 84,6 ثانية ، بينما لمس الصبيان أمهاتهم لمدة 58,8 ثانية فقط . كذلك تحدثت البنات إلى أمهاتهن أكثر من الصبيان . وعندما وضع متراس بين الأم والطفل ، فإن البنات كن غالباً ما يقبعن ملاصقات للمتراس ويبكين ، بينما كان الصبيان يقومون

42) لويس ، كاغان (1965) .

(* Free play situation . – B.A.

بمحاولات نشطة لتجاوز المتراس[43] .

مثل هذا السلوك يوصف ـ حتى من قبل عالم النفس « التقدمي » ـ بأنه « أنثوي الطبع » . وهنا أيضاً لا يطرح على الإطلاق السؤال عن أمكانية أن يكون ذلك نتيجة التربية المميزة جنسانياً . وهكذا يبقى البحث على مستوى الوصف ولا يسأل عن الأسباب .

بيد أن غولدبرغ وكاغان ولويس ، الذين رصدوا السلوك المميز جنسانياً لدى الأمهات (عندما كان عمر الطفل 6 أشهر) ، اشتقوا سلوك الأطفال من السلوك المميز جنسانياً لدى الأمهات . فوصف لويس[44] بشكل دقيق ، بأية أساليب تجري إعادة تربية الصبي من « سلوك الطريقة المقربة » إلى « سلوك الطريقة المبعدة » . ومن الأساليب المطبقة كثيراً تحويل الصبي الصغير من وضعية وجه ـ لوجه (مقربة) إلى وضعية وجه ـ لظهر (مبعدة) ، حيث يحول الصبي بعيداً عن الأم إلى « مواضيع » جديدة . وهذا يجري غالباً بمساعدة حركة تدير الطفل برفق وصوت رخيم ، بلطف ورقة .

وثمة أسلوب آخر لجذب انتباه الطفل عن أمه ، وهو صرفه إلى إحدى اللعب . ويقدم لويس في محضر وضعاً ممتازاً لحالة اللعب بين الأم وابنها البالغ سنةواحدة من العمر :

« انصرف الآن للعبتيه . المربع 6 . يدع آلة الحش تسقط . يجلس القرفصاء في المربع 6 . يتحدث إلى أمه . يجيل النظر في الغرفة . يمسك المضرب بيده اليمنى . يقف الآن في المربع 7 . يذهب إلى أمه . يلمسها (15 ثانية) . يستدير ويبتعد . يبتسم . في المربع 6 . ينزلق ويقع أرضاً . الآن في المربع 7 . يذهب إلى أمه . تلمس الأم رأسه . يلمسها (30 ثانية) . ترمي الأم الكلب والقطة بعيداً عنه(التشديد من

---

43) لويس ، كاغان (1965) .

44) M.Lewis : parents and children . Sex role development.in :School Review.Feb.1972,80,p.229–239.

المؤلفة) . يرقب ذلك . يبتسم ويتوجه إلى اللعبتين . في المربع 3 ، الآن في المربع 2 ، ثم في المربع 1 . يلتقط القطة . المضرب في يده اليمنى . يذهب إلى أمه . يدع القطة تسقط (45 ثانية) . في المربع 4 . يستند إلى أمه . يشرئب بنظره إليها . المضرب في يده اليمنى . تتحدث إليه . تديره إلى الوراء . يتطلع إلى جهة أخرى ويبتسم . المضرب في يده اليمنى (60 ثانية) . يذهب إلى المربع 3 . يلتقط القطة . يذهب ثانية إلى الأم . يدع القطة تسقط ، يذهب إلى أمه ويستند إليها . يشرئب بنظره إليها . المضرب في يده اليمنى . تديره الأم إلى الوراء (75 ثانية) »[45] .

هذا المحضر يبين بشكل جد واضح ،كيف يبدو « سلوك الطريقة المبعدة » بصورة ملموسة . فالصبي يُوجَّه من قبل الأم بصورة فعالةإلى مواضيع أخرى . فهي مثلاً ترمي بحيوانات قماشية بعيداً عنها ، كي يبتعد الصبي عنها ، ويتوجه إلى محيطه بصورة فاعلة . وعندما يقترب منها ، تداعبه بيدها وتديره ثانية بعيداً عنها باتجاه محيطه من الأشياء . هذا المحضر يبين تماماً السلوك الذي يربي الصبي على المزيد من الاستقلالية والاهتمام بمحيطه والأشياء المحيطة به . وهو سلوك يحرز « نجاحاً » باكراً جداً . دوافع هذا السلوك ظاهرة ، وكثيراً ما يعبر عنها المربون أنفسهم : على الصبيان الصغار أن يكونوا استقلاليين ، عليهم أن يكونوا صانعي عالمهم ، يخبرونه ويسودونه .

كذلك فإن دوافع « سلوك الطريقة المقربة » تجاه البنات الصغيرات ظاهرة . على البنات أن يكن اجتماعيات ، أن يهتممن بالأشخاص ، غير أنهن إذ ذاك يبقين محدودات ضمن « عالمهن الصغير » . إن قدر المرأة « في الداخل » ، وليس « في الخارج » . ومن أجل ذلك فإن « سلوك الطريقة المقربة » هو المناسب . فهو يتطلب سلوكاً اجتماعياً أكثر مما يتطلب سلوكاً فردياً . يتطلب مزيداً من القرب الجسدي إلى المربين ، ويضمن بذلك في الوقت نفسه رقابة أشد على سلوك البنات اللواتي يصبحن هكذا دائماً في متناول اليد وتحت الرقابة والتأثير المباشر . تبعات هذا الإشراط تصبح مرئية ، بالدرجة الأولى ، في سن الروضة .

---

45) المصدر السابق ، ص 235 .

ج - بين معترضيتين : الأمومة البيولوجية والأمومة الاجتماعية

إحدى الحجج الرئيسية التي تذكر للدلالة على الأهمية الخاصة للأم البيولوجية بالنسبة لتربية الأطفال (أي بالنسبة لـ « الأمومة الاجتماعية ») هي أن النساء يستطعن الإنجاب وإطعام الأطفال بشكل طبيعي في الأشهر الأولى من عمرهم ، أي يستطعن إرضاعهم . يُستنتج من ذلك ، كما يقال ، من الناحية النفسانية وجود صلة بين الطفل والأم أقوى مما بين الطفل والأب أو أي مربٍّ آخر . ومن هذه الصلة « الأقوى » يُستدل على أولوية صلاحية الأم بكامل مراحل الطفولة والفتوة . لذلك من الهام أن يتقصّى المرء هذه الحجج إلى الجذور . بخصوص الإطعام الطبيعي يمكن القول : إن هذا من الممكن استبداله ، من الممكن إحلال شخص آخر محل الأم (مرضعة) ، بالاضافة إلى أنه من الممكن في كل وقت إطعام الطفل بالقنينة . ولم يثبت حتى الآن أن لذلك أية عواقب سلبية على الطفل . وعلى كل فإن إرضاء الحاجة الأولية ، مثل الإطعام على سبيل المثال ، ذو أهمية ثانوية فحسب بالنسبة للتطور النفسي عند الطفل . وهذه معلومة جديدة تلقي ضوءاً جديداً كل الجدة على موضوع الأمومة .

نحن نعلم أن الفترة الوليدية تنتهي بعد حوالي الشهر من الولادة وأن الطفل بعدها ينفصل نفسياً عن الشخص الذي يرعاه . وينشأ لدى الطفل نوع من « الحياة الفردية النفسية » . من الناحية الفيزيولوجية يترابط هذا الانتقال بدرجة معينة من تطور المحلل البصري ، ومن الناحية النفيسانية بتطور حاجة عضوية جديدة ، إنما غريبة في نوعها ، لكونها نفسية في ذات الوقت ، وهي الحاجة إلى انطباعات عن العالم المحيط . هذه الحاجة تلوح ـ إذا حلل المرء البيانات المتواجدة في البحوث المعنية ـ بالانتقال إلى مرحلة جديدة من التطور النفسي .

المهم أن هذه الحاجة عابرة ، أي أنها تتجاوز نفسها فتكون بمثابة قاعدة أو مقدمة للحاجة إلى الاتصال الاجتماعي . ويمكن أن يعتبر هذا قوة دفع حاسمة وأرضية للتطور النفسي اللاحق لدى الطفل . وهو ينشأ ، تبعاً لبوشوفيتش ، في أواخر السنة الأولى من

العمر ويصبح بعدئذ عاملاً هاماً في اكتساب أشكال إنسانية مميزة من السلوك والنشاط »[46] . وإذا ما اقتصر الاتصال بالطفل على تنظيفه وإطعامه ، فإن تطور الأشكال الإنسانية المميزة لما هو نفساني سرعان ما يدخل في زقاق مسدود . وتزداد باستمرار البراهين على أن الانفعالات الإيجابية لدى الرضيع لا تنشأ وتتطور إلا عبر المثيرات الخارجية على أعضاء الحواس .

لقد اختصت كيستياكو فسكايا[47] في دراسة المثيرات التي تخلق لدى الطفل في شهور العمر الأولى انفعالات إيجابية . وقد كتبت أن وجهة النظر المذكورة آنفاً كان قد تبناها في القرن التاسع عشر طبيب الأطفال شاتوفيتسكي ، ثم لاقت هذه الأفكار فيما بعد الدعم من العديد من الباحثين . وهي نفسها (أي كيستياكو فسكايا ـ ب . ع) جمعت معلومات ميدانية معبرة جداً ، تثبت رأي مجموعة من العلماء بأن « السرور ينشأ لدى الطفل لأول مرة عبر التأثيرات الخارجية على أعضاء الحواس ، ولا سيما العين والأذن »[48] .

وكتبت كيستياكو فسكايا بهذا الخصوص : « هذا يشير إلى مدى خطأ وجهة النظر القائلة بأنه يمكن أن تنشأ انفعالات إيجابية لدى الطفل عبر إرضاء حاجاته العضوية . إن مجمل المعلومات التي يقدمها البحث تثبت أن إرضاء الحاجات العضوية يعيق أو يلغي الاستجابات الانفعالية السلبية ، ليس إلا . بذلك تخلق في الحقيقة مقدمات موائمة لنشوء استجابات انفعالية إيجابية ، لكن إرضاء الحاجات العضوية بحد ذاته لا يبعث هذه الاستجابات »[49] . وتعطي كيستياكو فسكايا مثالاً جيداً على قلة أهمية الإطعام من أجل إقامة اتصالات بين الرضيع والمربين : لقد رصدت أطفالاً رضعاً في بيوتات للرضع ، فتأكد لها أن هؤلاء كانو يسرون لظهور المربيات اللواتي يلعبن معهم

46) انظر أ . ل . بوشوفيتش : الشخصية وتطورها في سن المدرسة ، برلين 1970 .

47) كيستياكو فسكايا ، لدى بوشوفيتش (1975) .

48) المصدر السابق ، ص 144 .

49) المصدر السابق .

ويتحدثن إليهم أكثر مما يسرون لحضور أمهاتهم اللواتي قدمن لإرضاعهم[50] .

إن الحاجة إلى انطباعات جديدة تستدعي ، باعتبار أنها تتطور باستمرار وتزداد تعقيداً ، نشاطاً توجيهياً متعدد الجوانب لدى الطفل . وعلى هذه الأرضية تنشأ الحاجة المعرفية . فتحمل الطفل على أن يتوغل أعمق فأعمق في محيطه وأن يصيب منه امتلاكاً (انظر بهذا الخصوص نتائج أبحاث ليسينا لدى بوشوفيتش[51]) . بيد أن الطفل لا يستطيع بدون عون البالغين أن يكتسب أشكال النشاط الادراكي ، التي تصبح باستمرار أكثر تعقيداً ، وأن يرضي بالتالي حاجته إلى استعلامات أكثر جدة وتعقيداً . يترتب على ذلك أن يحتاج الطفل من أجل إرضاء هذه الحاجة إلى مربّ أو عدة مربين . إلا أن هذا المربي لا يتحتم أن يكون أماً بيولوجية . « طبعاً لا يجوز أن يغفل المرء عن أن إشراك أناس آخرين (إثارة اجتماعية) يحقق مثيرات حسية متنوعة . من زاوية النظر هذه تكون الإثارة الاجتماعية ضرورية بلا شك ، ولكن « ليس هناك ما يثبت أن الإثارة الاجتماعية تتم على أفضل شكل عن طريق أم أو شخصية أم رؤوم »[52] .

إن حقيقة أن الأم هي التي تحقق هذه الإثارة فعلاً ، لا يرفع من قيمة مثل هذه المثيرات المحرّضة . بل إن الأم ما تزال حتى الآن هامة في عملية الجمعنة ، لأنها غالباً ما تكون الشخص الذي يعنى عناية كبيرة بأمر الإثارة ، والذي يضع نفسه تحت التصرف . ولكن هنا بالذات يمكن استبدالها . هذا يعني ، أن تكون الأم « البيولوجية » والأم « الاجتماعية » متحدتين في شخص واحد ، ليس بأي حال طبيعياً ، إنما هو « حضاري » . فالادعاء بأولوية أهلية الأم البيولوجية والجنس الأنثوي عموماً « للأمومة الاجتماعية » يفتقد أي أساس حقيقي . وذلك من جانب الطفل ، كما من جانب الجنس الأنثوي ـ الذي ليس بحكم الطبيعة ، بل في أفضل الأحوال بسبب القدرات الأنثوية المنماة فيه قد تأهل خصيصاً لتربية الأطفال .

---

50) المصدر السابق ، ص 147 .

51) المصدر السابق ، ص 148 .

52) لير .

إن الأمومة البيولوجية تستمر تسعة أشهر ، والأمومة الاجتماعية كامل الحياة . يضاف إلى ذلك أن زعم أفضلية الأهلية النسائية لتربية الأطفال يستخدم حتى الآن ذريعة لربط النساء بالبيت ولجعلهن مسؤولات عن العمل المنزلي والمهن « الأنثوية » الصميمة . هذا يعني ، أن المساواة بين الأمومة البيولوجية والأمومة الاجتماعية هي التحويلة الحاسمة على الطريق إلى تقسيم العمل المميز جنسانياً . لذلك فإن تقسيم العمل ، مهما جرى تحليله ، لن يلقى ما فيه الكفاية من التحليل الجذري والوضع على بساط البحث . ذلك لأن « عاطفة الأمومة » ليست خاصية فطرية ، بل مكتسبة .

د ـ في سن الحضانة ـ اهتمامات اللعب وتوقعات الأهل

1 ـ استعراض عام للتطور في سن الحضانة

في سن الحضانة يهيمن تطور الادراك . وجميع العمليات والوظائف النفسية الأخرى ، الذاكرة والانتباه والتفكير والعواطف ، تتحقق عن طريق الادراك (فيغوتسكي)[53] . وبالنسبة لسن الحضانة يمكن للمرء أن يصف نشاط الطفل بالنظر إلى صلاته بالكبار بأنه نشاط مشترك . فالكبار لا يضعون أمام الطفل أشياء للعب فحسب (دمية مثلاً) ، بل يعلمونه أيضاً أن يلعب وأن يعطي الأشياء مضمونها المميز . والأشياء التي ينالها الطفل من الكبار ترده دائماً بمضامين ملموسة ، بما يتناسب مع المعنى الاجتماعي لهذه الأشياء ، وبالتالي أيضاً مع المعنى الجنساني المميز لها .

قبل أن يستخدم الطفل اللغة بصورة فعالة ، يقوم الكبار بوظيفة التفاهم والتوجيه . فالكبار لا يبينون للطفل التعامل مع الشيء أو خصائص الأشياء ، ولا يعودونه على قواعد ومعايير معينة فحسب (يعودونه على مسار يومي معين ، يدفعونه إلى أفعال مباحة ، ويمنعون أفعالاً غير مرغوبة) ، بل أيضاً يقيّمون ويؤثرون بذلك باستمرار على سلوك الطفل . إن طفل الحضانة يمتلك من خلال النشاط المشترك مع

53) فيغوتسكي ، لدى : بوشوفيتش (1970) .

الكبار وتحت إرشادهم الأفعال الحسية الأساسية . في البدء لا يستطيع الأطفال القيام بهذه الأفعال إلا بمساعدة الكبار المباشرة وبمشاركتهم . ولكن ، حالما يتملك الأطفال هذه الأفعال ، يبدأون بالقيام بها بصورة مستقلة .

إن الحركات الاعتباطية والمهارات الحركية تبدأ بالتكون منذ سن الرضاعة ويجري خلال النشاط الحسي إنماؤها . وعلى تربية الطفل تتوقف كيفية تطور الانشغال العبثي في السنة الأولى من العمر . وكما برهن ليشتهان ـ أبراموفيتش[54] ، يتضرر التطور ، إذا ما نُقِّصت إجراءات تربوية مناسبة . فمثل هؤلاء الأطفال لا يلعبون ، بل يبقون ساعات دون انشغال .

إن الجديد يؤثر على نشاط الطفل بصورة مثيرة (انظر فيغورين ودينيسوفا)[55]. هكذا فقط يمكن أن ينشأ لدى الطفل اهتمام بالجديد منذ الشهر الخامس من عمره . وبالتكرار تتكون لدى الطفل تصورات عن خصائص الأشياء وما يمكن أن ينتج عنها ، حيث تستدعي التأثيرات الخارجية لدى تحقق شروط داخلية مناسبة نشاطاً اطلاعياً مميزاً بالنظر إلى الأشياء التي تستثير خصائصها اللعب وتبقيه (العبث وتأمل الأشياء تعتبر ألعاباً للرضيع) . على أن تطور اللعب ما يزال ـ كذلك في سن الحضانة ـ عملية ثانوية . في المقام الأول يبرز تطور الأفعال الحسية .

إن التعاملات المميزة الأولى مع الأشياء تنشأ في أواخر السنة الأولى من العمر . في الشهر الثامن من العمر لا يكتسب الطفل بعد الأفعال المعروضة أمامه من قبل الكبار ، كما لا يستطيع بعد إعادة إنتاجها . إنه يعامل الأشياء بصورة غير مميزة . في الشهر التاسع من عمره يسعى الطفل للانتقال من الحضن إلى الأرض . فتتطور فرادى الوظائف الفيزيولوجية أكثر فأكثر (الحسية والتذكرية والصوتية) . ويتعلق التطور بالعمليات الملموسة التي يدخل فيها . وتسمح نتائج الأبحاث حتى الآن بتأكيد التالي :

---

54) ليشتهان ـ ابراموفيتش ، لدى : د . ب . الكونين وأ . ف . سابوروشيز : حول سيكولوجيا الشخصية ونشاط الطفل ما قبل المدرسة ، برلين 1971 ، ص 52 .

55) فيغورين ودينيسوفا ، في : المصدر السابق ، ص 53 .

« من أجل إنجاز تقدم معتبر في تطور الوظائف لا بد أن تتخذ الوظيفة المعنية لنفسها موضعاً ضمن النشاط ، وأن تتطلب منها العملية التي تدخل فيها قبل كل شيء مستوى تطور مناسب لها . عندئذ من الممكن مثلاً في مجال الوظائف الحسية ، أي على صعيد الحساسية ، أن يتحقق تقدم استثنائي ، وأن يتم بصورة معتبرة تخطي عتبات الإحساس « العادية » ، المحددة من قبل الفيزياء النفسانية « الكلاسيكية »[56] .

في الشهر العاشر والحادي عشر من عمره يبدأ الطفل بإعادة إنتاج التعامل مع الأشياء ، إنما فقط إذا ما عرضت أمامه مباشرة وكان الكبار موجودين . أخيراً يعبث الطفل لوحده بالأشياء ، حالما تتواجد أمامه ، أو عندما يحتك هو نفسه بها ؛ وفي البدء يحدث هذا فقط مع الأشياء المستعملة بالاشتراك مع الراشدين . وتتسم هذه الدرجة من التطور بأن الأفعال المكتسبة مثبتة على مواضيع معينة . ثم شيئاً فشيئاً يبدأ البنات والصبيان بممارسة هذه الأفعال على مواضيع أخرى .

2 ـ المعاملة المميزة جنسانياً في سن الحضانة ونتائجها الأولى

في هذه المرحلة من الحياة تصير الأفعال الحسية إلى نشاط مهيمن . ثم تدريجياً تتطور القدرة الحقة على اللعب . في المقاطع التالية من هذا الكتاب سوف أستعرض كيف يتعلم الأطفال اللعب ؛ وأن الأشياء ، مواضيع اللعب ، ليست حيادية بل تتوفر للأطفال بمضامين ، وإلى حد بعيد بمضامين جنسانية مميزة ؛ وسأبين أي دور تلعبه بهذا الخصوص التوقعات المميزة جنسانياً من قبل المربين (الأمهات والآباء) .

لاحقاً لذلك سوف أبين نتائج المعاملة المميزة جنسانياً حتى هذه السن : فإذا كان من الصعب حتى السنة الأولى من العمر تمييز الطفل حسب جنسه استناداً إلى سلوكه ، فإن معالم الفصل بين الجنسين تتحدد الآن أوضح فأوضح . ففي سن الحضانة تفرض توقعات العالم المحيط على البنات (الصبيان) بصورة أكثر اتساعاً . والطفل نفسه يبدأ باستبطان هذه التوقعات . وأي ارهاص محتمل للمقاومة يجري قمعه بصورة منتظمة ،

---

56) ليونتيف (1973) ، ص 415 .

فماذا جرى حتى الآن ؟

ـ اهتمامات اللعب المميزة جنسانياً

يتعلم الأطفال في انشغالهم المشترك مع الكبار (حيث أن الكبار يسيطرون) الأفعال الحسية الأساسية ومضامينها . فالبنت الصغيرة مثلاً لا توضع بين يديها أو في سريرها مجرد لعبة ، بل تلقن في ذات الوقت ، ماذا تعني الدمية وكيف تعامل ، كيف يجب أن تهدهدها وتلبسها وتنزع عنها الثياب وتغسلها وتطعمها . أما الصبيان فلا يُبين لهم ذلك .

وهكذا ينشأ لدى البنات بعمر 10 أو 11 شهراً مثلاً « منعكس مهد الدمى » الشرطي (وهي تسمية صائبة جداً من بيلوني) . فالبنت تمارس الحركات الطقسية لهدهدة الرضيع مع دمية بصورة مبكرة لدرجة أن هذه الحركات تصير مثل المنعكسات وتبدو كأنها « فطرية » . بينما ليست هي سوى نتيجة للتربية المميزة جنسانياً . فنتيجة التدريب المستمر على الأنوثة تعتبر هنا خطأ « معجزة بيولوجية » . « بهذا الصغر ولديها غريزة الأمومة ! » ، هذا ما تنقله بيلوتي ساخرة عن لسان العامة . وهذا ليس سوى واحد من الأمثلة . وسوف نرى فيما بعد ، كيف أن جميع الخصائص والقدرات التي نسلم دون اعتراض بأنها « طبيعية » و « أنثوية صميمة » ، هي نتيجة التربية المتواصلة على الأنوثة .

مع ازدياد عمر الأطفال تزداد أفعالهم الحسية ، ينالون إمكانيات أكبر لأن يتصرفوا بمواضيع مختلفة ، ولأن يطوروا ويمارسوا حركات معينة . إلا أن المعروض عليهم من مواضيع اللعب مميز جنسانياً بأشكال مختلفة . هذا يعني ، أن الطفل هنا أيضاً يطور ويمارس حركات مميزة جنسانياً .

وثمة إحصاء لدانهاور[57] عن حيازة الألعاب لدى البنات والصبيان في عمر 21

57) دانهاور (1973) ، المصدر المذكور سابقاً ، ص 118 .

شهراً ، يبين إلى أي مدى مميز جنسانياً العرض من أدوات اللعب . فالبنات الصغيرات (وكذلك الأكبر) يمتلكن على الغالب دمى وألبسة دمى وعربات دمى . أما الصبيان الصغار فيمتلكون مركبات كبيرة ، سيارات صغيرة ، قطارات . وبنفس الكثرة يمتلك البنات والصبيان : دببة وحيوانات قماشية وأحجار بناء وحيوانات للجر وكتب مصورة . وتعد الألعاب الأخيرة « ألعاباً حيادية جنسانياً » .

هذه اللُعب المميزة جنسانياً والأفعال المميزة المرتبطة بها تصير في وقت قريب إلى اهتمامات مميزة جنسانياً . فتشير أبحاث لدانهاور[58] إلى أن التطور المميز جنسانياً لاهتمامات اللعب يبتدأ قبل السنة الثانية من العمر . في البداية لا يكون هذا التطور بارزاً بشكل قوي جداً . ومنذ عمر سنتين وأربعة أشهر فقط يظهر لدى البنات فرق أكبر نوعاً ما في اهتمامات اللعب . إلا أنه لا يوجد في هذه السن بعد فرق واضح في تفضيل مواد اللعب لدى البنات . فالسيارة مثلاً لا يسلم بها بعد على أنها مادة لعب صبيانية مميزة ـ إنما الدمية تكون لعبة بناتية مميزة . ومما له مغزى هنا ، أن اللعبة « الذكرية » هي المعيار ، كما يقال ، هي اللعبة بذاتها . بهذه اللعبة يحق للبنات أيضاً أن « يلعبن مرة ما » . غير أن الصبيان لا يحق لهم ، ولا في حالات استثنائية ، أن يلعبوا بألعاب البنات ، وإلا فإنه يجري احتقارهم والاستهزاء بهم .

إن هذه الفروق ، التي تبدأ في سن الحضانة ، في اهتمامات اللعب ذات أهمية كبيرة . ذلك لأن النشاط اللعبي لا يطور قدرات الطفل (مثلاً بالنظر إلى حراكيته) في الألعاب الأكثر ملموسية فحسب ، بل يصيغ أيضاً ما هو نفسي بصورة حاسمة . ثم إن الاهتمامات اللعبية المتباينة لدى البنات والصبيان تتضمن أنماط معايشة متباينة ، لأن الطفل يتقلد الدور اللعبي بكليته . وقد كتب روبنشتاين بهذا الصدد : « إن لعبة الدمى لدى البنات ذات مضمون مغاير تماماً للعب بمادة لعب تقنية . فلدى لعبة الدمى هناك دائماً تماثل مع الدمية . بذلك فإن الإعداد الدوافعي للسلوك هو مشاركة إنسانية مشددة ، و « المشاعر المسبغة » على الدمية من قبل الطفل هي دائماً مستجلبة من سلوكه

58) المصدر السابق ، ص 177 .

الخاص . وتفضي هذه الألعاب بغالبيتها من خلال تعميم الدافع إلى اهتمامات موجهة اجتماعياً إلى أنماط فعل مرتبطة بها . هذه الدوافعية الاجتماعية المشددة لدى البنات تضعهن في وضع يتقوى فيه إحساسهن بفعلهن الخاص وتقييمهن له على أنه اجتماعي . وهكذا تتلقى البنت « تمريناً تماثلياً » في إطار دور معد اجتماعياً . هذا الفرق الدوافعي الذي ينشأ من ذلك بين البنات والصبيان هو فرق جنساني نفساني أساسي . أما لدى الصبيان فتهيمن نشاطات لعبية منصبة على مواضيع شيئية . بذلك يصبح الفعل ونجاح الفعل الأساس الدوافعي المرشد »[59] .

بالمقابل ينبغي على البنات ويجب عليهن (ومن ثم فهن يردن أخيراً) في أواخر سن الحضانة أن يلعبن بالدمى . وهن يتعلمن في هذه السن باتقان تقريبي أن يُلبسن الدمى ويغسلنها ويهدهدنها ويطعمنها وينزهنها وكل ما يمت إلى ذلك من أفعال . وكل هذه مهارات ينبغي ويجب عليهن أن يملكنها فيما بعد وفقاً لوظيفتهن كأمهات . هذا التمرن على « الكفاءات الأمومية » (خصائص ومهارات) والمضامين العاطفية الضرورية لذلك يبتدأ في عمر غضّ ، بحيث أنه يجري فيما بعد ، كما لدى « هدهدة الدمى » ، بصورة ــ كما يقال ـ « تلقائية » ، فيما يشبه المنعكس . إذن ، فما ينبغي أن يكون فيما بعد « تحقيقاً لذات المرأة » ، إشباعاً لها ، ليس أكثر من ممارسة لقدرات ربيت عليها في أغض العمر .

أما الصبيان فيتعلموا باكراً التعامل مع السيارات واللعب الميكانيكية المعقدة ـ أشياء سوف يتعاملون معها كصبيان أو كرجال . إذن هنا ، لدى الصبيان أيضاً ، يبدأ منذ عمر غض التمرن ، يبدأ تطوير خصائص وقدرات « طبيعية » ظاهرياً . لكن في الحقيقة ليس هذا ، لدى كلا الجنسين ، أكثر من خلق مقدمات من أجل التقسيم الجنساني اللاحق للعمل وبذلك أيضاً إعادة إنتاج علاقات السيطرة الجنسانية القائمة .

غير أن هذه الاختلافات في نشاطات اللعب بين البنات والصبيان ليست سوى جزء من التجارب الشخصية المميزة جنسياً في سن الروضة . مع بداية اكتساب اللغة

59) روبنشتاين ، لدى : دانهاور (1973) ، المصدر السابق ، ص 93 .

يتعرف الطفل على التدخلات والتوجيهات في الحديث. وهكذا يُلقن مفاهيم اجتماعية، معايير، مشجعات ومثبطات. وبما أن البنت في تماسها مع المربين أقرب إلى الصبي من الناحية المكانية، لذلك تصير اللغة عندها إلى وسيلة إشراط وتقييد أكثر تجذراً.

وحتى اللغة تُلقَّن للبنات الصغيرات بشكل مغاير مما للصبيان الصغار. فالبنت لا يسمح لها بالتحدث بصوت عال، ولا بأية حال مقاطعة الكبار، ولا النطق بألفاظ معينة (هذا لا يليق بالبنات الصغيرات). يجب عليها أن تتحدث بصوت خافت، وبحرص، وتهذيب، وبوضوح. يمكن أن يقال، أن هناك لغة مطابقة جنسانياً للبنات وأخرى مطابقة للصبيان: «إن الأحاديث في جميع الأسر المرصودة تقدم شهادة عن ذلك... «البنات الصغيرات لا يتحدثن هكذا ـ الستّ لا ترفع صوتها أبداً. أو: هو يتحدث مثل صبي أصيل». هذه الفروق بين الجنسين مرئية ـ في العبارات المستعملة، في طريقة اللفظ، شّدة التعبير، بناء الجملة، وكذلك في مواضيع الحديث. والطفل يتعلم هذا باكراً ويجري تذكيره باستمرار بأهمية أن يتعلم صيغاً تعبيرية موافقة لجنسه»[60].

لدى هذا الإشراط المميز جنسانياً لا يكون المجالان المختلفان للبنت والصبي متساويي القيمة، بل من نوعيتين مختلفتين. فمثلاً، مجال العالم المحيط الذي يجوز للبنات ويتوجب عليهن اكتسابه أضيق بكثير من مجال الصبيان. فالصبيان يتطورون في مجالات مرسومة بشكل أوسع وبصورة أكثر استقلالاً. أما البنات فيتدربن في وقت مبكر جداً على وظائفهن اللاحقة كربات بيوت وأمهات، ليس إلا. وهكذا يظهر هنا ثانية ـ كما في مجمل التطور ـ، أن «المغايرة» الأنثوية المزعومة هي في الحقيقة «تدنٍ في القيمة»، هي بالضبط حصر أقوى وتربية على خصائص ومهارات أسهل استغلالاً.

ـ التوقعات المميزة جنسانياً لدى المربين من الأطفال

---

60) J. Bossard: Family modes of expressions. in: American Socialogical Review 1945. Bd.10.p.226-237,h.p.230.

إن التوقعات المميزة جنسانياً لدى المربين من الطفل ذات أهمية حاسمة بالنسبة لتطوره . على أن أكثر الأبحاث في هذا الموضوع أهملت توقعات الأب . وهنا أود أن أستشهد بأحد الأبحاث القليلة التي أدخلت هذه الناحية في الحسبان : افلين غودونو بيتشر استفتت أهالي الأطفال حول ما يجعل من البنات « إناثاً » ومن الصبيان « ذكوراً » ، فتبين لها أن كلاً من الأبوين ، الأمهات والآباء يجدون « الأنوثة » في اللباس الجميل والعادات البيتية والاهتمام بالأسرة والأطفال والتماثل مع امرأة . وهم يتوقعون أن تكون البنات أكثر اهتماماً بالناس من الصبيان . ويذكر الأهالي أن البنات الصغيرات ينظرن أكثر إلى وجوه الناس ، يهتممن بتعابيرها ويرصدن الصلات بين الناس . وغالباً ما يصفون البنات بأنهن مغناجات .

ويعتبر الأهالي الاهتمام بالأشياء والأفكار « ذكرياً » . وكثيراً ما يشيرون إلى رجحان انشغال الصبيان بالمركبات من شتى الأنواع . إلى جانب ذلك يرون الصبيان يهتمون بكيفية تشغيل الأشياء . كلا الأبوين ، الأمهات والآباء يسمحون للبنات في سنوات العمر الأولى بسلوك صبياني ، في حين يرفضون أي سلوك « أنثوي » لدى الصبيان .

وقد قدمت مقارنة نتائج البحث بين الأمهات والآباء من حيث التوقعات المميزة جنسانياً للأدوار شيئاً عظيم الأهمية : يتبنى الآباء أكثر من الأمهات بكثير إشراطاً شديد المحافظة للأدوار الجنسانية . وتدل المقابلات على أن الآباء على وجه الخصوص ميالون إلى الاهتمام بـ« الذكورية » لدى أبنائهم وبـ« الأنوثة » لدى بناتهم .

ومما نقلته افلين غودونو بيتشر في أبحاثها : « إنه يغضب عندما أعيّره باهتمامه بأشياء طفولية بنّاتية » ، هذا ما قاله أب عن ابنه البالغ سنتين من العمر . وذكرت إحدى الأمهات : « غضب أبوه ، عندما دهنت أظافره بالأحمر » . وذكرت أخرى : « شهادة لله ، أن الصبي لا يمكن أن يتحلى بشيء نسواني ! إن تصور أحمر الشفاه سوف يرعب أباه ! » . وأجاب أحد الآباء على سؤال عما إذا كان سينزعج إذا ما أظهر ابنه أنماط سلوك أنثوية : « نعم ، سأكون مضطرباً جداً ، سأكون منزعجاً بصورة مفزعة !

ولا أدري إلى أي مدى سيذهب بي الانزعاج ! . لا أستطيع أن أتحمل سلوكاً أنثوياً عند الرجال . إنني أشمئز منه تمام الاشمئزاز » . أما الأم فقد رأت ، بأن ابنها سيكون عندئذ « أكثر مبالاة ولطفاً ، بدلاً من أن يكون ذكراً . سيكون جنتلماناً أكثر منه ذكراً » .

أما لدى البنات فيقدر الآباء « الأنوثة » . تحدثت إحدى الأمهات عن أن زوجها كان جد مسروراً عندما لبست ابنته البالغة ستة أشهر من العمر فستاناً . ووجدها أجمل بكثير . وتحدثت أخرى عن أن زوجها قد شحب لونه عندما لاحظ أن ابنته قد قصت شعرها الطويل ، وطلب منها : « عديني ألا تقصي شعرها ثانية » . وذكرت أم ثالثة ، أن زوجها يتكلم مع الابنة بصوت رفيع ومع الصبي بصوت أجش عميق .

إن الطريقة التي يتحدث فيها الآباء عن بناتهم تشير إلى أنهم يرون في بناتهم مواضيع جنسية . هاك مثالين : قال أحد الآباء : « سألتني ابنتي مرة ، بأي من ابنتي أرغب أكثر ـ بها أم بأمها . إن المرء يعي دائماً ، بأن هناك شيئاً جنسياً ينساب بين الطفل الأنثى وأبيه » . وهكذا يتحدث نصف الآباء عن غنج بناتهم بطريقة تشير إلى أنهم مقصودين شخصياً بذلك . بعض الآباء وصفوا بناتهم من خلال الملاحظات التالية : « مغناجة جداً » . . . « مغرية »ـ ،« تعلم كيف تستدرجني لأن أقوم بما لا تستطيعه من أمها » . « هي وديعة ومغرية » . « تداعب ، وهي خبيثة ولعوبة ، حياء مصطنع . ربما يصبح منها ، عندما تكبر ، مداعبة صغيرة » . « لطيفة ومجاملة وودودة . ستصبح بالتأكيد مثيرة جنسياً . زوجتي تنزعج عندما أقول ذلك » . « تحب المداعبة . وخاصة مع الغرباء ، وأحياناً معي . تحاول أن تثير الانتباه . . . » . « هي لطيفة بشكل متميز . باستمرار تأتي للأحضان والتقبيل . . . » . « أسمع دائماً ، أن البنات الصغيرات يتطلعن إلى آبائهن أكثر من أمهاتهن » . « هي شخص رقيق ، محبوب وظريف » . « الأنوثة برأيي لا تكون بلا درجة من الجنس » .

هذه التعليقات تشير بوضوح إلى التوقعات المميزة جنسانياً لدى الأب من البنات ، في حين أن نصف الأمهات فقط ذكرن بشكل ما « سلوكاً مداعباً لدى بناتهن .

وإذا ذكرن ذلك ، لم ينسبنه إلى أنفسهن . فحيث يقول الأب : « إنها تداعبني » ، تقول الأم : « إنها تداعب أباها » أو « تداعب أناساً آخرين » .

فيبدو أن الآباء يقيمون وزناً للتربية على الأدوار التقليدية المميزة جنسانياً ، أكبر بكثير من كان يُظن حتى الآن . أما الأمهات فقد أبدين في دراسة بينشر توقعاً جنسانياً ضعيفاً ، أو على الأقل أضعف مما لدى الآباء . على أن هذا لا يعبر عن أي شيء بالنسبة لمدى تأثير الأب على الجمعنة الجنسانية في الواقع .

ولا تأتي أهمية هذا الرأي من أنه يضع الادعاءات المطروحة حتى الآن ، بأن الأمهات هن المسؤولات الوحيدات وأنهن المحافظات في هذا الأمر ، موضع تساؤل فحسب ، بل إنه يرجّح العكس . وتتواجد لدى توم ورايتس إشارات إلى هذا الرأي . إلا أن تقديم معلومات أكثر دقة في هذا المجال يحتاج إلى أبحاث أكثر مما هو متوفر . ما يمكن تأكيده الآن هو الشك بمزاعم الموقف « المحافظ » لدى الأمهات .

هـ - في سن الروضة - أهمية الألعاب المميزة جنسانياً

1 - استعراض عام للتطور في سن الروضة

إن الارتباط المميز لسن الحضانة ما بين الطفل والمربي يصبح لدى الانتقال إلى سن الروضة أقل متانة ، ويتغير . فالطفل يتحرر أكثر فأكثر من المربين ويصبح قادراً أن يتصرف بصورة مستقلة ودون مؤازرة متواصلة من الناس المحيطين به[62]. فبصورة تدريجية يجري تحميل الأفعال المكتسبة على مواضيع متزايدة باستمرار . في ذات الوقت تنشأ إمكانيات جديدة لكسب أفعال أخرى . والطفل يعيد إنتاج تلك الأفعال التي لم تعرض أمامه بصورة مباشرة ، إنما التي لاحظها في الحياة اليومية . وهذه الإمكانية الجديدة توسع إلى حد بعيد مجال الأفعال الحسية .

---

62) الكونين / شابوروشيز : حول سيكولوجيا الشخصية ونشاط طفل ما قبل المدرسة ، برلين 1971 .

غير أن النشاط اللعبي يبقى على مستوى الأفعال المتواترة المتكررة ، ما لم تجر رعايته من قبل الكبار . فأشياء اللعب بحد ذاتها لا تدفع إلا إلى استخدام محدود ، إذ يجب أولاً أن يجري إيصال « مضمونها » إلى الأطفال . ويبقى الطفل معتمداً على التحفيز والإثارة الملموستين المتأتيتين عن المربين . والحاسم في تطور استخدام اللعبة هو الإرشادات المباشرة من قبل الكبار . وتبعاً لاكسارينا[63] لا ينشأ اللعب عفوياً ، بل فقط في الشروط الثلاثة التالية :

1 ـ يجب أن يكسب الطفل في محيطه انطباعات متنوعة ؛

2 ـ يجب أن توضع تحت تصرفه ألعاب مختلفة الأنواع ؛

3 ـ يجب أن يحتك الطفل كثيراً بالمربين ؛ فلابد من إرشادات الكبار المباشرة ومن مساعدتهم .

عموماً يبدأ الطفل في هذه المرحلة بأن يعزل نشاطه وكذلك نفسه عن الكبار . ولأول مرة يستوعب الطفل وظائف وصلات الكبار (انظر أيضاً الفصل عن تطور التماثل الجنساني) . فتنشأ رغبات وميول شخصية إلى فاعلية مستقلة . وتبقى الحاجة إلى نشاط مشترك مع الكبار . تبعاً لذلك يصبح الكبار قدوة : فالطفل يرغب بأن يتصرف كالكبار . ولكن ، بما أن مجالات حياة الراشدين ليست جميعها مفتوحة أمام الطفل ، فإنه يشخّص في لعبه أفعالهم وصلاتهم ببعضهم . وهكذا تتوضح أهمية لعب الأدوار في حياة طفل الروضة . فالكبار وصلاتهم بالأشياء والناس يلقنون الطفل صلاته بالأشياء والناس . وهذه الصلة الجديدة بين الطفل والكبار ، حيث يسترشد الطفل في أفعاله بمثال الكبار ، هي الأرضية التي تنشأ عليها نوعيات من شخصية طفل الروضة . بهذا الصدد كتب بوشوفيتش : « إن توافق الدوافع ، كما يشير بحق ليونتييف ، ليس سوى تعبير عن افتراق النزعات الطفولية إلى التصرف المباشر ، (افتراقها) عن المطلب المباشر أو غير المباشر للكبار لأن يتصرف الطفل تبعاً لقدوته »[64] .

63) اكسارينا ، لدى : الكونين ، المصدر السابق ، ص 59 .

64) بوشوفيتش (1970) ، ص 130 .

إن الطفل (البنت ، الصبي) ينقاد لتصورات تتضمن الوظيفة الاجتماعية للكبار ــ نساءً ورجالاً ــ ، صلاتهم ببعضهم وبالأشياء . فتكتسب البنات الصغيرات (الصبيان الصغار) معايير وقواعد وأحكام النساء (الرجال) . وبما أن مجالات الحياة ليست جميعها مفتوحة أمامهم ، فإنهم يشخّصون في ألعابهم صلات الكبار ببعضهم وبالأشياء .

إن المواجهة المباشرة للبنات والصبيان مع محيطهم تساهم بصورة أساسية في تطوير مواضيع اللعب . وكلما ازداد اطلاعهم ، تعددت وتوسعت مجالات الواقع التي يعيدون تكوينها في ألعابهم . فالإمكانيات تتأثر إذن بإمكانيات المعايشة الواقعية أكثر من تأثير التربية الكلامية .

وتتعلق مضامين الألعاب بالعصر وبالانتماء الجنساني والطبقي للطفل . هذا يعني ، أن البنت الصغيرة تكتسب في اللعب معايير مغايرة لما يكتسبه الصبيان . فالبنات يلعبن ألعاباً مغايرة ، لهن « قدرات » مغايرة لما لدى الصبيان . البنات يكسبن في اللعب « البناتي المميز » مهارات ومواقف وأنماط سلوك مميزة ، تماماً مثل الصبيان في اللعب « الصبياني المميز » . البنت تكتسب من خلال اللعب البناتي المميز ، الذي تشخّص فيه صلات المرأة بالناس الآخرين وبالأشياء ، مهارات وخصائص واهتمامات « نسوانية مميزة » . والصبي يكتسب من خلال اللعب الصبياني المميز مهارات وخصائص واهتمامات « رجالية مميزة » (ولكل منهما تنوعات تتبع الانتماء الطبقي الذي يخصّه) .

وهكذا يكسب البنات والصبيان تصورات عما هو جيد وما هو رديء بالنسبة لهم ، عما يجوز لهم كبنات أو صبيان أن يفعلوه وما لا يجوز . كما يتعلمون في المقام الأول أن يسلكوا تجاه أناس آخرين وتجاه تصرفاتهم الشخصية سلوكاً جنسانياً مميزاً . (وهذا ما سوف يتبين في الأبحاث عن تطور التماثل الجنساني وقوالب الأدوار الجنسانية)(*) . إذن ، في اللعب تشخّص البنات الصغيرات (والصبيان الصغار) شتى جوانب

*) في الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب . ـ ب . ع .

النشاطات الجنسانية (والطبقية) ، ويتدربن على تقسيم العمل الجنساني والطبقي .

في سن الروضة يجري تأهيل البنات بصرامة على « الأعمال الأنثوية الصميمة » ، التي سيقمن بها مستقبلاً تبعاً للوظيفة المخصصة لهن كربات بيوت وأمهات وزوجات . وبالعكس يجري تحضير الصبيان لوظيفتهم الجنسانية المميزة . فيتعلمون جملة من النشاطات « الذكرية » مع كل ما يرتبط بها من الامتيازات والمراتب . في هذا الوقت تتطور بشدة تلك الخصائص والمهارات والاهتمامات الجنسانية المميزة التي هي مقدمة لممارسة النشاطات الجنسانية المميزة . وتتعلم البنت (الصبي) بصورة متزايدة أن تنجز مهاماً وواجبات إفرادية جنسانية مميزة معقدة (انظر الفقرة حول عمل البنات) .

نحن نعلم أن تعرف الطفل على محيطه يساهم جذرياً في تطوير مواضيع اللعب . ونعلم كذلك أن تعرف البنت ليس تعرفاً مغايراً فحسب ، بل هو أضيق بكثير مما لدى الصبيان . وهكذا فإن المجال الذي تتعرف عليه البنات الصغيرات ويعدن تشكيله من الواقع ، قد فُصِّل تماماً على دورهن المستقبلي كربات بيوت وأمهات وزوجات .

2 ـ التربية الجنسانية المميزة في سن الروضة ونتائجها

إن أشكال اللعب الثلاثة المختلفة (اللعب الوظيفي ، اللعب الإنشائي ، ولعب الأدوار) ذات أهمية مميزة لكل منها في إطار عملية تعلم البنات والصبيان . في لعب الوظيفة يتمرن البنات والصبيان على التحكم بالجسم والتوجيه الدقيق للحركات الهادفة والمقصودة . وفي لعب الإنشاء يكتسبون تجارب ملموسة مع مواد مميزة ، يتعلمون التعامل الملائم مع الأشياء والمواد ، والقوانين البسيطة المختصة بالمواد ، والتعامل الملائم مع المواد الميتة . وفي لعب الأدوار يستوعبون الصلات بين الناس (نساءً ورجالاً) وصلات الناس بالعالم المحيط . في المقاطع التالية سوف أستعرض بالتفصيل الأهمية المميزة لمختلف نشاطات اللعب ـ مع رصد خاص للأشكال الجنسانية المميزة لنشاطات اللعب ومفعولاتها (كيف ينقلب بسرعة هذا اللعب بالنسبة للبنات إلى واقع ، أي إلى

مساعدة فعلية في أعمال البيت وتربية الأطفال ، هذا ما سأبينه في فقرة « عمل البنات ») .

ـ لعب الأدوار

إن لعب الأدوار ذو أهمية خاصة بالنسبة لسن الروضة . ففي لعب الأدوار يتسنم البنات والصبيان لعبياً المهام والوظائف الاجتماعية الخاصة بالنساء والرجال الراشدين . والطفل ، الذي يعيد في اللعب إنتاج العمل والصلات بين الناس ، لا يقتبس فقط الشكل ، بل أيضاً المضمون ، أي مشاعر الناس وعالمهم الفكري . بالإضافة إلى أنه يستوعب بعمق معنى النشاطات البشرية (أي الأنثوية والذكرية) والمواقف الأخلاقية للناس من حوله .

في مجرى سن الروضة يتغير مضمون اللعب : المضمون الرئيسي كان في البدء النشاط الحسي للناس ، ثم الصلة بين الناس ، وأخيراً الانتباه إلى القواعد التي تحكم السلوك والصلات الاجتماعية بين الناس .

الجانب الفطري في اللعب هو إعادة إنتاج تصرف يطلق عليه مصطلح « دور » . والألعاب التي يحتل فيها الدور الذي يتقلده الطفل المقام الأول ، تدعى ألعاب الأدوار . في هذه الأدوار يعيد البنات والصبيان بشكل معمم إنتاج الوظائف ، التي يعرفونها ، للنساء والرجال الراشدين . وثمة جانب فطري آخر للعب الأدوار وهو قاعدة التصرف المتخفية وراء الدور . فإذا ما تقلدت بنت ما ، على سبيل المثال ، دور مشرفة على الأطفال ، فإنها تتبنى في ذات الوقت القواعد والمضامين المتسترة وراء وظيفتها الاجتماعية . فتراعي مثلاً كيف يتصرف الأطفال عند الغداء ، أو تدعوهم إلى الخلود للنوم ، إلى غسل اليدين الخ . هذه الوحدة بين الدور والقاعدة تعبر عن الوحدة بين محسوسية واجتماعية مضمون اللعب ، التي تتطور في سن الروضة وتبقى قائمة خلال كامل سن الروضة .

إن لعب الأدوار هو في منشئه ومضمونه اجتماعي . وضعه وتطوره يتعلق بالمكانة

التي يحتلها الطفل في نظام العلاقات الاجتماعية الملموسة . وبما أن البنات (النساء) يحتللن مكانة اجتماعية مختلفة ، متدنية عن مكانة الصبيان (الرجال) ، فإن هذا يؤدي إلى تطور جنساني مميز للعب الأدوار - إلى جانب التطور الطبقي المميز . وعبر موضوع ومضمون لعب الأدوار يدخل البنات والصبيان في احتكاك مع مجالات الحياة الاجتماعية ، حيث سيعيشون لاحقاً ، تبعاً للوظيفة الجنسانية المميزة المخصصة لهم ، والتي ما زالوا في هذه المرحلة لا يشاركون فيها مباشرة .

في الأشكال الأولية للعب الأدوار يتصدر في البدء النشاط الحسي . ويعيد الطفل في أفعاله الحسية بشكل معمم إنتاج وظائف معروفة من قبله للنساء والرجال الراشدين ويتمرن عليها . وبعض الأشكال الأولية يمارسها بنفس القدر البنات والصبيان - مثلاً دور الفارس - ، غير أن أكثرها يتميز جنسانياً . فيجري حث البنات على إطعام الدمى وغسلها ومداعبتها وهدهدتها . بهذه التصرفات الحسية يعدن إنتاج أعمال « أنثوية » مميزة في شكل لعبي . ومثل ذلك تجده في ألعاب الأدوار التي يُحث الصبيان عليها ، مثل لعب دور منظفي المداخن أو السائقين الخ . فكذلك الصبيان تجري تهيئتهم بالتصرفات الحسية ، التي يقومون بها ضمن لعب الأدوار ، لأعمالهم « الذكرية » المميزة .

ومع ازدياد تطور لعب الأدوار تبرز الصلات الإنسانية بشكل أوضح . يصل الأمر إلى الألعاب الجماعية ، حيث تتصدر التصرفات تجاه الأناس الآخرين . وبالقيام بهذه الألعاب الأدوارية يعيد الطفل الآن في لعب الأدوار إنتاج الصلات الاجتماعية بين الكبار ، وإذن أيضاً الصلات الجنسانية المميزة للنساء والرجال ، وبالتالي علاقات الخضوع والسيطرة بين الجنسين . فالبنت ، مثلاً في لعب دوري « طبيب - ممرضة » (أو « طيار - مضيفة » و « أب - أم ») تعيد إنتاج منزلتها المتدنية ، والصبي يعيد إنتاج منزلته المتفوقة . فهنا أيضاً لا يمكن الحديث عن « المغايرة » ، بل يجب التحدث عن دونية الدور الأنثوي . ذلك لأن عرض الأدوار الأنثوية يتميز بالخضوع والتبعية تجاه الرجال . والأدوار الذكرية تمتاز باستقلاليتها النسبية والتفوق بالنسبة للنساء .

كثير من المؤلفين يرون بوضوح شديد هذه الفروق الجنسانية في لعب الأدوار ،

لكنهم لا يسألون عن الأسباب . هذا يعني ، أنهم يعتبرون الفروق الجنسانية « الفطرية » هي السبب ولا يبحثون عما هو مكتسب . وهانسن من الأمثلة الجيدة على ذلك . كتب : « في مرحلة مبكرة تختلف ألعاب الصبيان والبنات عن بعضها اختلافاً معتبراً ، وغالباً يكون الاختلاف ليس في الفكرة فحسب ، بل أيضاً في طريقة التنفيذ والتكوين . فالألعاب التعبيرية وتصرفات ومواضيع اللعب لدى البنات مأخوذة في مضمونها من الحياة في الأسرة وتدبير المنزل وكل ما يتصل بذلك . بعكس ذلك يقع عالم لعب الصبي على الأرجح خارج البيت : يلعب الصبيان كراكبي دراجات نارية ، كسائقي سيارات ، كجباة أو سائقي حافلات أو قطارات الخ . كل ما هو تقني يؤثر عليهم تأثيراً غير عادي ويكون مركزاً لتعبيراتهم اللعبية »[65] . ويتابع هانسن : « على أن البنات يحتفظن إذ ذاك أيضاً بخصوصياتهن : فهن يسافرن مثلاً بقطار الصبيان ، لكن يتركن لهم الأعمال التقنية ويكتفين برعاية الطفل في القطار »[66] .

وكتب بهذا الخصوص هويش وراينغر : « لو تتبعنا لعب البنات ، لوجدنا أن في مركز اهتمامهن تقبع أوهام تدور حول أشخاص وأحداث الحياة ضمن البيت وحول شكل الأسرة » . و « الصبي يستهويه في المقام الأول الاتساع ، الأشخاص والأحداث خارج البيت وخارج شكل الأسرة . . . إذ ذاك يحاول الصبيان في المقام الأول إظهار المعرفة التقنية والتحكم الكامل قدر الإمكان بالمادة . . . »[67] . ويقول هانسن : « بالنسبة للبنت يلاقي المرء إغراء لأن يتحدث حتى في هذه السن المبكرة عن موقف جمالي (دور راقصة باليه ، أميرة) . . . بل إن التفاصيل وتصوير حتى الدقائق مرغوب ـ وهو عموماً مميز لتصرفات اللعب عند البنات (. . .) . وكذلك الأمر في المسلك والحديث . . . ولا حاجة للإشارة إلى ألعاب تدبير المنزل والرعاية . كما أن ألعاب

65) ف . هانسن : تطور الصورة الطفولية عن العالم ، ميونيخ 1965 ، ص 55 .

66) المصدر السابق ، ص 56 / 57 .

67) ل . هويش / ك . راينينغر : حول سيكولوجيا اللعب الطفولي والفروق الجنسانية في سن الروضة ، في : حولية علم النفس التطبيقي ، 1926 ، ص 171 / 172 .

التاجر والمعلم والزائر ، بل حتى ألعاب القطار وحديقة الحيوان تلقى لدى البنات أشكالاً أكثر نعومة مما لدى الصبيان »[68] . وهكذا تبقى جميع الأمثلة على مستوى وصف الظواهر ، دون السؤال عن : لماذا .

ـ لعب القواعد

في المجرى اللاحق لسن الروضة تتغير النشاطات اللاعبية . فالمضمون الرئيسي كان في البدء النشاط المحسوس للكبار ، ثم الصلات بين الكبار ، وأخيراً الانتباه إلى القواعد التي تنظم السلوك والصلات الاجتماعية بين الناس . وتبعاً لالكونين[69] تشير أبحاث ميدانية في هذا المجال إلى وجود القانون التالي : يبدأ تطور اللعب بأدوار مكشوفة تتستر وراءها قواعد معينة (مثلاً فارس) ويقود إلى ألعاب بقواعد مكشوفة يبقى الدور فيها متستراً (مثلاً الطميمة) . إذن يتغير اللعب في مجرى تطوره . فألعاب الأدوار في حالات مكشوفة تصير إلى ألعاب قواعد تنطوي على الحالة المتخيلة والدور في شكل متستر . هكذا تختلف ألعاب القواعد مثل الطميمة أو ألعاب الطاولة اختلافاً كبيراً عن ألعاب الأدوار حيث يجري مثلاً تشخيص أعمال طبيب أو مستكشف للقطب .

يظهر الأمر ، وكأن لعب الأدوار ولعب القواعد يمثلان خطي تطور مختلفين . إنما في الواقع يتطور أحد هذين الشكلين بصورة مباشرة من الشكل الآخر ، وذلك على أساس الضرورات في النشاط اللعبي للطفل . فألعاب القواعد تتطور من لعب الأدوار بحالات متخيلة . ومن الممكن ، من تسميات كثير من ألعاب القواعد ، كما على سبيل المثال « القط والفأر » أو « الذئب والخراف » ، أن تعرف لعبة الأدوار الأصلية . إن ألعاب القواعد تظهر متأخرة نسبياً في سن الروضة . ويلاقي الأطفال بعمر ثلاث إلى أربع سنوات صعوبة جدية في أن يمتثلوا لقواعد اللعب .

لماذا لا تنشأ ألعاب القواعد قبل مرحلة تطور معينة ، لماذا لا تنشأ في نفس الوقت

68) هانسن (1965) ، ص 56 .

69) الكونين (1971) .

مع ألعاب الأدوار ؟ السبب يعود إلى دوافعية اللعب . فتصرفات اللعب الأولى تنبثق من الحاجة المتنامية ومن الضرورة لدى الطفل بأن يسيطر على المواضيع المبتدعة من الناس . والتصرف (أو الفعل ـ ب . ع) بالنسبة للطفل هو وسيلة لاكتشاف الواقع الحسي . فما هو إنساني يتجلى له في شكل متوضع .

أثناء تطور اللعب تظهر في وضوح متزايد الصلات الإنسانية التي تكمن في المضمون المحسوس للعب . فعلى سبيل المثال لا يقود سائق الشاحنة حافلته فحسب ، بل يدخل أيضاً في صلات معينة مع الركاب ومع الجابي . ففي درجة مبكرة نسبياً من تطور النشاط اللعبي لا يرى الطفل في موضوع اللعب صلات البشر بهذا الموضوع فحسب ، بل أيضاً صلات البشر ببعضهم .

ويصل الأمر إلى الألعاب الجماعية ،حيث لا يلعب الأطفال إلى جانب بعضهم فحسب ، بل مع بعضهم أيضاً . وتتجلى الصلات الاجتماعية كصلات بين اللاعبين . بذلك يتغير أيضاً الدور . فمضمونه لا يحدد تصرف الطفل تجاه الموضوع فحسب ، بل أيضاً بالنسبة للاعبين المشاركين الآخرين . ويظهر دائماً المزيد من الألعاب التي تتصدر فيها هذه التصرفات تجاه الناس الآخرين .

إن تطور ألعاب مشتركة ذات صلات اجتماعية نامية هو أهم شرط لاستيعاب مبدأ قواعد اللعب . وعلى هذه الأرضية ينشألعب القواعد . في هذه الألعاب لا يتحدد الدور والحالة ، بل القاعدة والمهمة . فالمطلوب الوصول إلى هدف معطى في ظل شروط معينة . بذلك تختلف هذه الألعاب إلى حد بعيد عن ألعاب الفترة المبكرة من سن الروضة . ومما يميز لعبة القواعد هو أنها تنطوي على مهمة . والتطور يبرز هذه المهمة اللعبية بشكل متزايد الوضوح ويجعلها موعية بوضوح متزايد .

وكما لدى جميع النشاطات اللعبية يجب كذلك لدى ألعاب القواعد التفريق بين ألعاب القواعد البنائية وألعاب القواعد الصبيانية . فهنا أيضاً لا يمكن التحدث عن تطور عام للعبة القواعد لدى الطفل . وتضم ألعاب القواعد(*) : « التبولة » ، ألعاب

*) أعطينا لبعض الألعاب أسماء عربية محلية ، وهي المستخدمة في مدينةاللاذقية على=

السلاسل (« سمسم ساقي ») ، ألعاب رقص الحلقات (« طاق طاق طاقية ») ، لعبة أمسك حرامي ، الحلجة ، ألعاب الكرة ، حزر الأسماء ، ألعاب اللمس (« أنا جيت ») ، الطميمة ، ألعاب المهارة ، ألعاب الحركة ، النط على الحبلة ، ألعاب ورق الشدة .

ولكي أوضح وظيفة القواعد البنّاتية المميزة ، سوف أصف كمثال « نط الحبلة » وكذلك « لعب الطابة بمواجهة الحائط » . إن « نط الحبلة » يمكن أن يُلعب فردياً أو بالاشتراك مع آخرين ، حيث تستطيع البنت أن تقفز بشتى التنويعات على ساق واحدة أو ساقين . ويحتاج المرء إلى موهبة معتبرة في توفيق الحركات ، وكثير من البنات يتوصلن إلى شطارة لا تصدق في هذه اللعبة . هذا النوع من القفز على الحبل غير معروف للصبيان ، وهم لا يشغلون أنفسهم مطلقاً بشيء كهذا ، بل ينعتونه باحتقار « ألعاب بنات »[70] . وكذلك في « لعب الطابة بمواجهة الحائط » يوجد بالإضافة إلى الحركة الأساسية عدد كبير من التنويعات : فالبنت ترمي الطابة إلى تحت من حول الركبة وتمسك بها بعد دورة كاملة ، ثم ترميها بالاتجاه المعاكس وهكذا .

إن نقطة الثقل في هذه الألعاب المتكررة باستمرار والمحددة للاعب تكمن في جعل حركات اللعب الإفرادية المحدودة أكثر دقة وكمالاً ـ ولكن جعلها أيضاً أكثر محدودية . ويعبر هذا النوع من الألعاب البناتية عن « تفضيل الطقوس والشعائر اللعبية ، الأمر الذي سيتجلى فيما بعد من خلال رتابته وشكلياته كخضوع خانع ومرغوب تقريباً للإكراه الدائم »[71] .

= وجه الخصوص . على كل ليس من السهل معرفة اللعبة من تسميتها بالألمانية ، على من لم يمض طفولته بين الناطقين بهذه اللغة . كذلك لم تتوفر لنا وسيلة لمعرفة أسماء هذه الألعاب في البلدان العربية الأخرى . وهنا نجد حاجة ماسة لدراسات ميدانية عربية حول ألعاب الأطفال . ـ ب . ع .

70) مؤلف بيلوتي (1975) يتضمن عرضاً مفصلاً لكلا اللعبتين .

71) المصدر السابق ، ص 82 .

هنا تُدرب البنات بصورة مبكرة على ما سيطبقنه وما سيتحملنه فيما بعد كنساء في البيت والعمل المهني : رتابة ونشاطات تكرارية ـ تأهّلن لها في سن الطفولة بصورة لعبية ـ يتوجب عليهن تطبيقها في سن الرشد فعلياً (مثلاً في الجلي وعلى شريط الإنتاج) . والأعراضي في هذه الحالة « الأنثوية » الصميمة هو هذا التحديد ـ مكانياً ومضمونياً ـ والتحرك القسري تقريباً ضمن هذه الحدود المرسومة .

ـ الألعاب الرياضية

في السنوات الأولى من العمر تقام ألعاب رياضية مشتركة بين البنات والصبيان ، مثلاً ألعاب الجري والطميمة وكذلك ألعاب الغناء . في هذه الألعاب الرياضية المبكرة ، المسماة في كتب الرياضة « ألعاب صغيرة » ، لا يكون الجنس بعد بتلك الأهمية المتقدمة ، كما سيصبح عليه الحال بعدئذ بصورة سريعة : « القسم الغالب من الألعاب الصغيرة يصلح للصبيان والبنات . ولكن على المرء أن يتخلى بالنسبة للبنات عن بعض الألعاب ، التي تتطلب جهداً جسدياً قاسياً وبذل قوة كبيرة ، أو أن يعدّل اللعبة »[72] . وهذه الأقوال نموذجية بالنسبة للإعداد الجنساني المميز في المجال اللعبي أيضاً . فالبنت يُنكر عليها مسبقاً إمكانية تطوير القدرات الجسدية . ومن خلال التحديد المنتظم والإعاقة المتنامية في المجال الفيزيائي مع تقدم العمر يجري إعاقة البنات عن تطوير القوة والمرونة الجسدية . وهنا أيضاً المسطرة المتكررة دائماً : من خلال تبعات المعاملة الجنسانية المميزة يجري تحديد الأسباب المزعومة والبرهان عليها ، ألا وهي « الفروق الموروثة » .

أما الصبيان فيجري تشجيعهم على الألعاب التي تتطلب « جهداً جسدياً قاسياً وبذل قوة كبيرة » . إلا أن هذا التشجيع الهادف للصبيان لا يُدرك بصفته هذه ، أو لا يعترف به . يزعمون أن الصبيان « يندفعون » أكثر من البنات نحو الألعاب التنافسية ، العراك وألعاب الرهان تتصدر لديهم . بينما البنات يبقين حتى نهاية

72) دويلر وهوغو : الألعاب الصغيرة ، برلين 1968 ، ص 140 .

طفولتهن مخلصات للرقص في حلقات : « إن التعلق في الشكل الانسجامي للفعل المشترك يجعل من الرقص في حلقات قيِّماً بالنسبة للبنات حتى في هذه السن »[73] .

والصبيان يُوجَّهون إلى الألعاب الرياضية ، التي « يستطيعون فيها تحقيق المزيد من الانجاز ، حيث تبرز المتعة ببذل الجهد والعراك مع الخصم ، والتي تتطلب مرونة وقدرة على اتخاذ القرار . أما البنات فإنهن يتابعن برغبة توجههن نحو الألعاب الغنائية . . . . كما أن الألعاب البسيطة في الجري وبالكرة ، التي يرفضها الصبيان ، تبقى مرغوبة من قبل البنات »[74] .

فالبنات يبقين ، فيما يخص تطوير القوة والمرونة الجسدية ، في مستوى الصبيان الصغار . الصبيان هم المعيار ، البنات - قياساً بهم - ناقصات . والبنات ، عندما يمارسن ألعاباً رياضية تتطلب شيئاً من القوة الجسدية ، لا يحق لهن اللعب إلا بانحرافات عن المعيار » . « لعبة الإزاحة مثلاً ، لعبة قوى جميلة للفتيان والرجال ، ولا تصلح للفتيات والنساء إلا في صيغة معدلة » ، و « لدى بعض ألعاب الكرة ، من الأفضل ألا يسمح للفتيات والنساء بطبيعة الحال أن تلتقطن كرات تريض مصمتة كبيرة ، بل تُستبدل بكرات مصمتة خفيفة أو كبيرة فارغة »[75] .

وحتى عندما لا يتواجد سلوك جنساني مميز ظاهر للعيان ، فإن هذا السلوك يفسر على الأقل بصورة جنسانية مميزة . هذا يعني ، أن البنت ، إما أن تتصرف (تبعاً للتدريب على الأنوثة) تصرفاً « بناتياً » بالتمام والكمال ، أو ينسب لسلوكها الحيادي ، كما في علب التقاص الكرة ، على الأقل دوافع « أنثوية » . فقد كتب هوبش ورايننغر : « إذا ما لعبت الفتيات بلقص الكرة ، فالبتأكيد ليس ذلك بالمقام الأول بسبب الوظيفة الامتاعية للجري ، بل إن الصلة الشخصية بشريك اللعب والرغبة في التفوق الشخصي والاغتباط بحذاقة ورشاقة الحركات هي على الأرجح أهم بالنسبة لها من التريض

73) المصدر السابق .

74) المصدر السابق .

75) المصدر السابق ، ص 301

الخالص الموجود لدى الفتيان . فلقص الكرة يخدم لدى الفتيات لتنمية اللياقة البدنية ، ومن هنا ميل الفتيات إلى ألعاب الرقص في حلقات »[76] .

إن هذه الرشاقة المورَّثة - كما يزعمون - للنساء والرقة الزائدة في الحركات والمهارة ما هي إلا حصيلة التمرين المنتظم منذ الصغر في هذه المجالات . فالمشية المغايرة والوضع الجسدي المختلف أو القدرة والمرونة الجسدية الزائدة لدى الرجل ليست فروقاً جنسانية طبيعية ، بل نتيجة تمرينات منتظمة لسنوات مديدة .

إن الإهمال البالغ ، خاصة لتمارين القوة الجسدية (كما على سبيل المثال المصارعة) ، كثيراً ما يكون له بالنسبة للفتيات والنساء عواقب وخيمة : الدونية الجسدية ، وبذلك أيضاً العجز عن مقاومة القوة أو السيطرة الجسدية الممرنة لدى الفتيان أو الرجال .

إن إهمال البنات وتمييزهن يتواجد أيضاً في رسومات كتب الرياضة . عموماً تعرض في كتب الرياضة والتربية البدنية على الأغلب صور الفتيان ، ونادراً ما تعرض صورة لفتاة . وتعرض صور البنات تقريباً لدى التمارين البناتية الخالصة ، مثل رقص الحلقات ونطّ الحبلة . (تصاوير مشتركة للفتيان والفتيات تتواجد فقط لدى ما تسمى « الألعاب الصغيرة » ، أي غالباً في كتب التربية البدنية لدور الحضانة ورياض الأطفال) . وهذا يعني : لا يسمح للبنات إلا بنوع طفولي من التريض البدني ، التبعات اللاحقة لهذه التربية معروفة بما فيه الكفاية . . . ، إحداها هي أن النساء الراشدات يتقبلن السلطة الرجالية بضعف واستسلام لدرجة أنهن يسكتن على ضربهن .

- الألعاب الإنشائية

76) هوبش ورايننغر (1926) ، ص 171 .

تبدأ ألعاب الإنشاء (تبعاً لكلاوس وهيبش)[77]في السنة الثانية من العمر وتزداد كثافة حتى الدخول في عمر المدرسة . إذ ذاك تتبدل طبعاً أشكالها تبدلاً كبيراً . وتتعلق أنواع الألعاب الإنشائية بصورة أساسية بتأثير المربي . وتتحدد بالعصر والانتماء الجنساني والطبقي . والتأثير المحفز باكراً من قبل المربين يمكن أن يؤدي إلى بداية أبكر للعب الإنشاء . فمن الخطأ الاعتقاد أن الأشكال اللعبية تتطور نوعاً ما من نفسها .

في بداية تطور الألعاب الإنشائية يجوز للبنات والصبيان أن يقوموا بصورة مشتركة بألعاب إنشائية كثيرة . لكن هذا يتغير مع نمو السن .

ومن الأشكال المبكرة لألعاب الإنشاء تلك التي ذكرتها شارلوته بولر[78] : البناء بالمكعبات والحجارة ، اللعب بالرمل ، تركيب الأزرار . . . ، الرسم ، طبع الصور ، تركيب سلاسل ، إسقاط صور ظلية على الحائط الخ . ومن الأشكال المتأخرة : البناء بصناديق بناء معقدة ، أدوات لعب علمية تقنية ، التطريز ، الرفي الخ . جميع هذه الأمثلة تقريباً تشير إلى التمييز الجنساني لدى ألعاب الإنشاء . بذلك يكتسب الصبيان من خلال ألعاب الإنشاء « الصبيانية المميزة » العديد من الاطلاعات ، والقوانين التي تحكم المواد والتعامل الموضوعي معها . فهذه المواد تتناسب إلى حد بعيد مع الوظيفة المخصصة للذكور في عملية الإنتاج . « إن معلم البناء الصغير يتعرف لدى الاشتغال العملي بمواد اللعب على القوانين البسيطة للسكونيات وعلم مقاومة المواد . . . يلاحظ كم من الأشياء يستطيع المرء أن يصنع من مادة معينة ، وما يمتنع عليه صنعه بسبب طبيعة الأشياء »[79] .

كذلك البنات يتعلمن من خلال ألعاب الإنشاء « البناتية المميزة » ، والتي هي على أية حال أقل تنوعاً ، باكراً جداً التعامل المناسب مع مواد ومواضيع اللعب ، وهو بطبيعة الحال تعامل هادف مع المواد والأشياء التي سيتوجب على البنت التعامل معها فيما

---

77) غ . كلاوس وهـ . هيبش : سيكولوجيا الأطفال ، برلين 1962 .

78) شارلوته بولر ،لدى : كلاوس ، وهيبش (1962) ، ص 162 .

79) المصدر السابق .

بعد كربة بيت وأم وزوجة . إلى جانب هذا التثبيت على ما هو « أنثوي » مميز ، فإن مجال التنوع في ألعاب الإنشاء البناتية أضيق مما لدى الصبيان . مرة أخرى إذن لا نجد لدى البنات مجرد مغايرة في الألعاب عن الصبيان ، بل أيضاً قبل كل شيء دونية : تضييقاً أشد . فالبنات لا يجري تدريبهن بصورة شاملة على التعامل مع مواد كثيرة ، بل يجري تعليمهن بصورة محددة وهادفة لمتطلبات العمل المنزلي وتربية الأطفال .

على العموم تحظى الألعاب الإنشائية بنصيب أوفر عند الصبيان ، بينما ترجح لدى البنات كفة ألعاب الأدوار . تبرهن على ذلك نتائج أبحاث دانهاور[80] ومشاهدات روسل[81] . وإذن فالصبيان يمرّنون في هذه المرحلة من التطور بالأغلب على التعامل مع المواد ، بينما تُمرّن البنات على الصلات الاجتماعية .

3 ـ اللعبة الجنسانية المميزة

أكثر الكبار يتبجحون بأنهم يدعون الأطفال يختارون لعبهم بأنفسهم . غير أن دراسة لغولدمان وليفر[82] وغيرها من الدراسات تبرهن على أنه لا يمكن التكلم هنا عن « الاختيار » ، بل تعرض على البنات والصبيان ، ولا بد ، لُعب جنسانية مميزة . وتبحث الدراسات المذكورة في القوانين التي تحكم انتقاء الكبار لألعاب الأطفال . وقد تبين من ذلك :

1 ـ حتى السنة الثانية من العمر ينال البنات والصبيان غالباً ألعاباً مماثلة : حيوانات قماشية ، ألواح خشبية ، ألعاب تربوية لتعلم الألوان والأعداد . ولكن كلما ازداد البنات والصبيان في العمر ، أصبحت الفروق أكبر بين اللعبة « الأنثوية » واللعبة

80) دانهاور (1973) .

81) روسل (1972) ، في : موسوعة سيكولوجيا التطور ، ص 511 .

82) غولدمان وليفر (1972) في :

S.Stacey.S.Béreaud.J. Daniels :Sexism in American Education, in : And Jill come Tumbling after , New York 1974 .

« الذكرية » .

2 ـ أكثر بائعي ألعاب الأطفال يقترحون ، غالباً دون أن يسألهم أحد ، ألعاباً « صبيانية » و « بناتية » تقليدية ، محددة حسب المعايير الاجتماعية للبنات والصبيان (يسأل البائع : هل تريدون لعبة للصبيان أم للبنات ؟) .

3 ـ أغلب الكبار يتقيدون بصرامة بهذه المعايير ، والقلائل فقط يسمحون للطفل أن ينال اللعبة المرغوبة التي تنحرف عن المعيار الجنساني .

وقد أظهرت الدراسة المذكورة ، أنه مثلاً لم تُشتر للبنات أية لعبة علمية ! . ثم أن الأهل الذين لا يتلقفون بصورة واعية ألعاباً جنسانية مميزة ، فإنهم في الحانوت على أبعد تقدير يُحضّون على ذلك . وطبقاً لذلك تُورّد الألعاب للتجارة : ذلك لأن صناعة الألعاب لا تنتج لعباً للأطفال ، بل لعباً للصبيان ولعباً للبنات . وتجارة ألعاب الأطفال تنقل ذلك إلى الناس .

ويبرهن غولدمان وليفر في دراستهما على أن ألعاب البنات والصبيان لا تختلف إذ ذاك في المظهر الخارجي فحسب ، بل أيضاً في النوعية ، ويثبتان دونية نسبية واضحة في الألعاب « الأنثوية » تجاه « الذكرية » . وتبين من جراء تحليلهما المكثف لقوائم سلع الألعاب ومشاهداتهما في حوانيت سلع الألعاب ومقابلاتهما مع بائعي (بائعات) سلع الألعاب ومن قراءة الاستمارات التي تسبر موقف الكبار والأطفال تجاه لعب معينة ما يلي :

1 ـ لعب الصبيان أكثر تنوعاً وأغلى ثمناً . وقد قُدِّرت بأنها « أكثر تعدداً » و « أكثر حيوية » .

2 ـ لعب البنات تعتبر « بسيطة » و « مسلية » .

3 ـ اللعب الحيادية تعتبر خلاقة ومربية .

إن حيازة الأطفال الفعلية من سلع اللعب هي محصلة جميع هذه العروض والطلبات المشذّبة جنسانياً من قبل المربين والعالم المحيط بالطفل . وقد أعلن الـ 42 صبياً وبنتاً ، الذين سألهم غولدمان وليفر عن الهدايا التي تلقوها في عيد الميلاد ، أعلنوا

عن عدد مماثل تقريباً من الهدايا . ولكن ضمن هذه الهدايا كانت هناك فروق كبيرة من حيث النوعية . فقد كانت لعب الصبيان أغلى من لعب البنات ، وأكثر تنوعاً ، وصرف وقت أطول على انتقائها من قبل الكبار .

ومن الملفت للانتباه أيضاً ، أن هدايا الصبيان تألفت بنسبة 73٪ من أشياء لعبية ، بينما بلغت النسبة في هدايا البنات 57٪ فقط . الباقي ، أي ما يقارب نصف هذه الهدايا ، كان من « أشياء نافعة » : لباس ، نقود ، تجهيزات بيتية (للاستعمال الآني وربما أيضاً كـ « جهاز عروس ») .

وتتجلى جنسانية الألعاب أيضاً في الملابس التنكرية . فقد بينت دراسة غولدمان وليفر ، أن أزياء الأدوار للصبيان « ذكرية » صميمة ، أي تجسد شخصيات فاعلة وعالمة وعظيمة (شيوخ الهنود الحمر ، سائقو سيارات السباق ، رواد فضاء ، سوبرمان ، طبيب الخ) . كذلك فإن أزياء الأدوار للبنات « أنثوية » صميمة ، أي ديكورية وعاجزة وخدومة (أميرة ، عروس ، مغنية أوبرا ، ممرضة الخ) . وتبدو أكثر جلاء العلاقة بين الصبيان والبنات في هذه الألعاب ، عندما يستحضر المرء الرديفين الذكري / الأنثوي ، كما على سبيل المثال الطبيب (مع السماعة ، مقياس الضغط ، دفتر الوصفات ، المجهر الخ) والممرضة (المريول ، عربة الطعام الخ) . هنا تتوضح الوظيفة الخادمة للدور الأنثوي فيما يتعلق بمحيطها وشركاء اللعب الذكور .

وإذا ما لعب البنات والصبيان معاً ، فإنهم غالباً ما يلعبون ألعاباً حيادية (مثل ألعاب الورق ، الشطرنج ، الطميمة الخ) . ويثير الانتباه تقييم الألعاب الحيادية بأنها أفضل الألعاب « إبداعياً » و « تربوياً » ، مما يشير إلى أن إلغاء الانحصار ضمن ألعاب جنسانية مميزة يعني لكلا الفريقين (البنات مثل الصبيان) المزيد من الانطلاق .

بيد أنه ، عندما يركز المرء النظر على هذه المسماة « لعباً حيادية » ، يتضح أن قسماً منها فقط هو حقاً حيادي (مثلاً الأحاجي ، الموزاييك ، ألوان الرسم الخ) . أما الألعاب « الحيادية » المكونة من عناصر وبنى يمكن تحديد هويتها بدقة ، فإنها تتكشف

ثانية عن ميول جنسانية مميزة . فقد تبين لالينا بيلوتي[83] ، أن عرض هذه اللعب « الحيادية » يكون « أنثوياً » و « ذكرياً » ، ومرتبطاً بما يناسب من المضامين المميزة : على علب الليغو الصغيرة مثلاً صور للبنات ، وعلى العلب الكبيرة صور للصبيان .

هنا يستمر إذن ، ما كان واضحاً جداً لدى اللعب الجنسانية الصريحة : مثلاً على ثلاث من كل أربع علب من الشيمي باو(*) لا يُصوّر سوى الصبيان ، وعلى واحدة فقط من أصل الأربعة صبيان وبنات (ولا مرة واحدة بنت لوحدها) . إنما قطع البناء الخشبية ، المربعات والمثلثات تُعرض مع رسوم مشتركة للبنات والصبيان[84] .

فالعلم والتقنية يترابطان لدى عرض اللعب دائماً مع ما هو مذكر ، بينما الألعاب البسيطة مع ما هو مؤنث . في ظروف كهذه لا يمكن للبنت أن تهتم بالتقنية ، فاهتمامها لا يجري تطويره أو يجري إيقافه بسرعة . وتجدر الملاحظة أن غولدمان وليفر وجدا لدى تحليل رسومات قوائم اللعب ، أن الآباء يُعرضون دائماً في دور العالمين ، المعلمين ، المدرسين ، والأمهات يُعرضن في دور المتفرجات أو أثناء انهماكهن في شغل البيت .

4 - عمل البنات

في سن الروضة يتحول اللعب شيئاً فشيئاً إلى جدّ ، ويتكوّن العمل الحقيقي . فتحت تأثير المربين يتعلم الأطفال تدريجياً إنجاز مهام متفرقة . في هذه المرحلة من التطور يجري من خلال مختلف الألعاب من جهة متابعة تهيئة البنات والصبيان لمهامهم المميزة كنساء ورجال ، ومن جهة أخرى يجري نقل قسم من القدرات المُطوَّرة إلى أمر واقع . هذا يعني ، أنه يتوجب على البنات في هذه السن أن يعملن في البيت . وعمل البنات هذا يصل إلى حجم أكبر بكثير مما كان يتصور المرء حتى الآن .

في البدء يشارك البنات والصبيان بصورة متساوية نسبياً في الأعمال البيتية . ومن

83) بيلوتي (1975) .

*) Chemie - Bau - Kaesten . - B.A.

84) غولدمان وليفر (1972) .

ثم ترتسم بازدياد فوارق نوعية وكمية . وبخصوص المهام « الأنثوية » و « الذكرية » المميزة يمكن القول ـ تبعاً لسيرس وماكوبي وليفين[85] ـ أنه من بين أطفال الخامسة من العمر تقوم البنات مثلاً بترتيب الأسرّة وتحضير مائدة الطعام ومسحها ، ويقوم الصبيان مثلاً بإفراغ سطل الزبالة .

ومع ازدياد العمر يصبح الطابع الجنساني للواجبات البيتية أكثر حدة . ففي أحد الاستطلاعات الميدانية[86]أجابت بنات في التاسعة والعاشرة من العمر ، أنهن يقمن بـ « أعمال تنظيفية » غالباً : نفض الغبار ، مسح ، كناسة ، ترتيب الأسرّة ، تقشير البطاطا ، طبخ ، خبز ، غسيل ، كوي . أما الصبيان فيهتمون بالتدفئة ، ويحضرون الفحم والبطاطا من القبو . فالتقسيم الأنثوي / الذكري إلى جواني / براني باد للعيان . كذلك فإن التفريق الكلي يصبح أكثر حدة مع ازدياد العمر . فتشير دراسة لفريدريش / برغل[87] ، أنه في سن اثنتي عشرة سنة يبلغ عدد البنات اللواتي يقمن بأعمال بيتية لمدة تزيد على ساعة ونصف يومياً ضعف عدد الصبيان ، وفي سن السادسة عشرة من العمر أربعة أضعاف عدد الصبيان .

ويؤخذ من دراسة فريدريش / برغل ما يلي :

أطفال يساعدون ما يزيد على ساعة ونصف يومياً في العمل المنزلي :

- في الصف السادس 3 صبيان ـ 5 بنات .
- في الصف الثامن 3 صبيان ـ 6 بنات .
- في الصف العاشر 3 صبيان ـ 12 بنت .

إزاء هذه المعطيات لا يستطيع المرء إلا أن يخمن كم تبلغ الأعباء الحقيقية التي تقع على عاتق البنات في العمل المنزلي وتربية الأطفال .

---

85) Sears . Macoby and Levin (1957) .

86) دانهاور (1973) .

87) فريدريش / برغل ، لدى : لك . أوتو ، الانضباط لدى البنات والصبيان ، برلين 1970 .

في الأعمال البيتية **الاعتيادية** يُستعان بالبنات تماماً ضعف ما يستعان بالصبيان . « إذ ذاك يجب أن يؤخذ بالحسبان أن أغلب الواجبات الاعتيادية للبنات تفرض عليهن من حيث الحجم والمضمون متطلبات أعلى مما على الصبيان »[88] .

هذه المزاولة المبكرة للعمل من قبل البنات تتم من جهة قدراتهن « الأنثوية » وتجعلها أكثر اتقاناً ، وترسّخ من جهة أخرى خصائصهن « الأنثوية » المميزة . لذلك فهن يتعلمن بصورة مبكرة ومتقنة أكثر بكثير من الصبيان أن يُخضعن اهتماماتهن الشخصية للصالح العام ، وأن ينظمن عملهن ، باختصار : توجيه سلوكهن بحسب المتطلبات الموضوعية . ولهذا التدرب على توجيه السلوك وعلى ضبط التصرفات أهمية كبيرة . فهو يساهم مساهمة أساسية في أن تبرز خصيصاً لدى البنات بصورة مبكرة وجيدة الخصائص التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالسلوك الانضباطي : الاتقان ، الشعور بالواجب ، المثابرة ، الاستعداد للمساعدة ، التضحية ، الاجتهاد ، التغلب على الذات ، المراعاة الخ . بهذه الطريقة تربى البنات باكراً وبصورة مكثفة على أن يسلكن سلوكاً انضباطياً . أما لدى الصبيان فتبقى قدرات تربوية هامة ، إلى حد بعيد دون استغلال[89] .

هذا العمل الملموس يتطلب إذن ويدعم الاستعداد لإخضاع الشخصية الذاتية ـ ليس فقط ، كما يرى اوتو ، « للصالح العام » ، بل أيضاً لصالح الرجل الفرد . إن عمل البنت الصغيرة يتطابق تماماً مع عمل المرأة الراشدة في التدبير المنزلي وتربية الأطفال . على أن الشعور الزائد بالواجب والاجتهاد والتغلب على الذات الخ يعني في المقام الأول أيضاً زيادة في عمل البنات . في حين أن الصبيان يبقون إلى حد بعيد معفين من ذلك ، بل ويتمتعون منذ الآن بخدمات البنات .

وهكذا ، طبقاً لانفراد النساء بمسؤولية وعبء كامل العمل في التدبير المنزلي وتربية الأطفال ، يتوجب على البنات بازدياد العمر أن يساعدن لوحدهن في تدبير

88) هارلوف (1964) ، لدى : اوتو (1970) ، المصدر المذكور ، ص 194 .
89) المصدر السابق .

المنزل . بينما يبقى الصبيان ،طبقاً للامسؤوليتهم الكلية ولتحررهم من عمل البيت وتربية الأطفال ، معفين من ذلك بل ويتمتعون به .

وكتبرير لتخصص النساء طيلة العمر في العمل البيتي وتنشئة الأطفال ، تخدم القدرات والخصائص المطورة إلى حد الكمال ، التي ، بسبب إرسائها باكراً تُمارس بشكل شبه « انعكاسي » ، وبذلك تبدو وكأنها طبيعية ، موروثة .

الفصل الرابع

نماذج الأدوار الجنسانية

آ ـ وسائل الاعلام

إن تأثير وسائل الاعلام هو في الحقيقة غير مباشر ، إنما لا يمكن بأي حال التهوين من مفعوله . وتشير الأبحاث إلى أن موديلات الأدوار الجنسانية المميزة ، من الكتاب المصور إلى البث التلفزيوني ، هي أكثر محافظة من الواقع ، حتى في حال البرامج التقدمية ظاهرياً ، كما على سبيل المثال « شارع سيزام »(*) ، الذي سأحلله كمثال فيما بعد . إن وسائل الاعلام ليست مرآة للواقع الجنساني في مجتمعنا ، بل بالإضافة إلى ذلك هي نفسها أداة للتحوير بهذا الواقع من خلال تشويهها الإضافي لصورة الرجل ـ المرأة .

ب ـ الكتب المصورة

ما هو الدور الذي تلعبه الكتب المصورة في هذا المجال ؟ من خلال الكتب المصورة يتعلم البنات والصبيان شيئاً عن العالم خارج محيطهم المباشر . يتعلمون ، ماذا يفعل غيرهم من البنات والصبيان ، وكيف يشعرون . يتعلمون ، ما هو صحيح وما هو خطأ بالنسبة للبنات ، وماذا يُنتظر منهم في هذه السن .

إن الكتب المصورة مؤثرة بشكل خاص ، ذلك لأن الطفل يتفحصها ويقرؤها

(*) هذا الاسم مأخوذ ، كما هو ظاهر ،من « افتح يا سمسم » في الحكاية الشرقية العربية « علي بابا والأربعين حرامي » . وقد جرى اقتباس المسلسل وعرضه عربياً . ـ ب ع .

دائماً ودائماً من جديد ـ وذلك في وقت يكون فيه تطور التماثل الجنساني حاسماً بشكل خاص . ونماذج الأدوار في الكتب المصورة تصل إلى الطفل ، قبل أن يظهر تأثير المؤثرات الجمعانية الأخرى مثل المدرسة والمعلم والأقران .

وقد نشرت ليونوره فايتسمان[1] تحت عنوان « جمعنة الدور الجنساني في الكتب المصورة لأطفال الروضة » دراسة شاملة في هذا الموضوع . ولا تتوفر دراسة في ألمانيا في موضوع الكتب المصورة يمكن أن تقارن بهذه الدراسة . مثل هذه الدراسة متوفرة في ألمانيا عن كتب القراءة للمرحلة الابتدائية لانغه .زولفيدل[2] وكذلك لزلبرمان وكروغر[3] ولغابريله كارستن[4] . ونتائج هذه الدراسات تتطابق مع نتائج دراسة ليونوره فايتسمان بالنسبة للكتب المصورة . بناء عليه يمكن لنا أن ننطلق من أن النتائج التي توصلت إليها فايتسمان عن الولايات المتحدة الأمريكية تنطبق على جمهورية ألمانيا الاتحادية . وكما أوردت فايتسمان ، لا تتواجد النساء تقريباً في الكتب المصورة ، أي أن تمثيلهن أقل بكثير من الرجال في العناوين والأدوار المركزية والتصاوير والقصص . فالأغلبية المطلقة من الكتب المصورة تدور حول الصبيان والرجال ، حتى الحيوانات مذكرة . وجميع القصص تقريباً تتحدث عن مغامرات ذكرية حصراً ، وإذا ما ظهرت النساء فإنهن يلعبن دوراً تافهاً ، وكثيراً ما يبقين دون اسم .

---

1) فايتسمان وآخرون

Weitzmann : Sex role socialisation in picture books for preschool children. in: Americ. Journ . of Sociology,May 1972

2) زولفيدل : البنت ـ صورة المرأة في كتب القراءة للمدارس الابتدائية ، في : غميلين / ساوسوره ، افلاس سلطة الرجال ، فرانكفورت / ماين 1971 .

3) زلبرمان / غروغر : بعيداً عن الواقع في صورة المرأة في كتب القراءة الألمانية ، كولونيا 1971 .

4) غ . كارستن : طريق مربومة إلى السعادة . تمييز النساء في كتب قراءة المرحلة الابتدائية ، برلين الغربية ، دار النشر النسائية 1976 .

في الواقع يمثل الجنس الأنثوي 51٪ من السكان ، النصف إذن . وفي الكتب المصورة يقابل كل صورة لأنثى 11 صورة لذكور . وإذا ما أخذت صور الحيوانات بالاعتبار ، وهي ذات تماثل جنساني باد للعيان ، عندئذ يقابل كل أنثى 95 ذكراً . وبالنسبة لعناوين الكتب تبلغ نسبة الذكري / الأنثوي : 8 / 3 (وهي نسبة ثابتة منذ 1938) .

وفي الثلث تقريباً من الكتب المصورة المدروسة لا يوجد نساء على الاطلاق ، فالتصاوير والقصص تعبر عن عالم رجالي فحسب . وفي ثلثي الكتب المصورة ، والتي على الأقل تظهر فيها النساء ، يكنّ إما شخصيات تافهة ووضيعة ، أو أمهات وزوجات لأبناء أزواج شجعان . وبالطبع لا تُسأل النساء في هذه الكتب المصورة عند اختيار الزوج (وهذا لا يمنع القاصّ من أن يؤكد من جديد : « وسرعان ما أحبوا بعضهم إلى الأبد ») . أن يحببن رجالاً رائعين ، وأن يعجبن بهم وينصرنهم ، هذا بعض ما هو مسموح للنساء في الكتب المصورة .

والحيوانات في الكتب المصورة هي على الدوام تقريباً ذكرية : فيلة ، دببة ، أسود ، نمور . وإذا ما صورت مرة حيوانات أنثوية ، فإنها تكون عندئذ لاحقة بالحيوان الذكري القائد للقطيع . على صعيد الواقع ، الفيلات واللبوات مثلاً هي التي تقوم بجميع الأعمال ، بينما في الكتاب المصور لا وجود لذلك إطلاقاً . البقرات هي بلا شك إناث ، والدجاجات أيضاً (« بقرة غبية » و « دجاجة غبية »(*) . . .) . وهناك ميل لرؤية الحيوانات الأنثوية مرادفة للمحدودية والدونية : « إن اختيار هذه الحيوانات يعكس قلة الاحترام تجاه النساء »[5] . ويتمثل تمييز النساء في تسمية الجمادات ! . إن تشخيص الجماد هو عموماً ذكري (انظر إ . فيشر[6]) .

---

*) شتائم مستعملة في اللغة الألمانية المحكية . - ب .ع .

5) فايتسمان (1972) .

6) فيشر ، لدى : ستاسي ، بيرو ، دانيلز (1974) ، المصدر المذكور سابقاً ، ص 118 .

يمكن أن نتصور ببساطة ماذا يعني هذا بالنسبة للبنت الصغيرة (وكذلك طبعاً بالنسبة للصبيان الصغار) . فالبنات الصغيرات اللواتي يقرأن هذه الكتب ، تنتزع منهن أية إمكانية لمماثلة وتطوير الشعور بالذات . فالبنات في الكتب المصورة مخلوقات جوفاء ، أقل قيمة ، يقمن بأشياء أقل إثارة ، هن ببساطة أقل حضوراً . بينما الصبيان ينالون شعوراً بالأهمية والقيمة . يشعرون بأنهم متفوقون على البنات ، ويطورون بذلك موقفاً وتقييماً سلبياً تجاه البنات والنساء .

وتوجز ليونوره فايتسمان نتائج أبحاثها بما يلي :

1 ـ في عالم الكتب المصورة يكون الصبيان فاعلين والبنات سلبيات . الصبيان لا يصورون في أدوار مثيرة ومغامرة فحسب ، بل هم أيضاً مستقلون وعالمهم أكبر . كذلك فإن أغلب النشاطات الصاخبة موقوفة على الصبيان . بعكس ذلك فإن أغلب البنات في الكتب المصورة سلبيات وثقيلات الحركة . بعضهن تعيقهن ثيابهن (تفصيلات ضيقة ، والنهي عن توسيخ النفس) . يلبسن ثياباً مكسّرة ، مقواة ،زهرية اللون ، وشعورهن مسرحة بشكل مرتب أو مجدولة في ضفائر . يظهرن بشكل جميل ، جميل لدرجة لا يصلحن معه لسواقة دراجة أو للشقاوة . وكثيراً ما تصور البنات الصغيرات مثل الدمى ، التي وجدت لكي يعجب بها المرء ، ابتسامتها الثابتة تعلّم بأن النساء قد صنعن من أجل إسعاد الآخرين .

البنات الصغيرات يجرين ، يقرأن ويحلمن ، ولا يفعلن . فالبنات مثلاً نادراً ما يقدن دراجة ، وإذا ما فعلن ذلك ، فإنهن يجلسن وراء الصبي على المقعد ، إذن يُساق بهن . تُصوّر البنات الصغيرات بشكل مثبط ، لدرجة أن البنت الصغيرة التي تلعب في الكتاب المصور بزورق ورقي ، تكون فاعلة بصورة غير اعتيادية .

2 ـ البنات الصغيرات أكثر تواجداً ضمن البيت من الصبيان . هذا يعني الحد من نشاطاتهن ومغامراتهن الممكنة . من جهة ، يعكس الواقع تماماً ، ويصعّب من جهة أخرى الخروج على هذا الواقع ، لأنه يتفق مع الواقع ولأن البنت ستعتبر « استثناء غير طبيعي » في حال المخالفة .

3 ـ تُصوَّر البنات منعزلات . وعلى النقيض من الصبيان ، الذين يظهرون وهم يلعبون لعباً رفاقياً أو يقومون بالمغامرات ، فإن البنات نادراً جداً ما يظهرن وهن يلعبن سوية مع بعضهن ، ولا يظهرن أبداً في مغامرات مشتركة . وهكذا فإنه يجري تشجيع الصداقات بين الصبيان ، وتجاهل الصداقات بين البنات . ومن مرة إلى أخرى يرى المرء في مجموعة الصبيان بنتاً واحدة . فوجود بنت في مجموعة صبيان يعتبر إعلاء لقيمة البنت . أما وجود صبي في مجموعة بنات فإنه يعني حطاً من قيمة الصبي . فهذا ليس رجولياً . على أن إعلاء البنت إلى مستوى جماعة الصبيان ما هو إلا الاستثناء من القاعدة .

4 ـ إن دور البنت الصغيرة يُعرَّف أساساً بالنسبة إلى الصبيان ، كما فيما بعد المرأة بالنسبة للرجل . وإذا كانت القصص تدور مثلاً حول التحرير والانقاذ ، وكثيراً ما تكون حول ذلك ، فإنه يجري تصوير الصبيان حصراً . أما الضحية المرتجفة فهي طبعاً أنثى في الغالب . فالبنات الصغيرات مخلوقات ضعيفة يجب إنقاذها (مثل الحيوانات الصغيرة) أو الأخذ بيدها ـ حتى عندما يكون الصبي ، الذي يقودها ، أصغر منها ! . ومن الفروق التمييزية الواضحة بصورة خاصة ما بين البنات والصبيان التصويرات مع الكلاب . في هذه التصويرات تنقاد على الدوام تقريباً البنات الصغيرات لكلب صغير ، واضح أنهن لم يستطعن السيطرة عليه . . . بينما الصبيان الصغار يظهرون مع كلب ضخم وهم ، ومع أنهم أصغر منه ، يقودونه بشكل ممتاز .

5 ـ والناحية الهامة الأخرى هي العمل الذي على البنات أن يقمن به . فالأخت تطبخ للبطل الصغير ، بينما يجلس هو إلى الطاولة ويشرب الكاكاو . البنات (حتى الأميرات !) يخدمن الآباء والأزواج والأخوة . إن التصوير يتجاوز في سلبيته واقع كثير من البنات الصغيرات ، فهو يقدم موديلاً أكثر انحصاراً بكثير من حياة البنات نفسها .

وإذا ما تتبعنا في هذه التصويرات نمو البنت الصغيرة ، فنستطيع أن نرصد إلى أي مدى يجري عرض تطورها بصورة أحادية تحت ضوء خدماتها المستقبلية . فيُوضح مثلاً أن البنت قد أصبحت كبيرة بما فيه الكفاية لأن تسقي الأزهار ، لأن تحرك عجينة

الكعك ، توضب المائدة ، تلعب دور الممرضة ، تساعد الطبيب (وهو الصبي طبعاً) ، تقطف الثمار ، تحضر الحليب من البراد ، تطعم الرضيع . ومن أجل زوجها المستقبلي تتعلم البنت أيضاً من الكتب المصورة الغسيل والكوي ونشر الغسيل والطبخ وتحضير المائدة الخ .

أما الصبيان فإنهم يشاركون طبعاً مع ازدياد العمر بنشاطات متنوعة : يصطادون فراشات ، يحصدون العشب (وهو عمل منزلي « ذكري » صميم) ، يمشون في الاستعراض ، يزورون حديقة الحيوان ، وينجّرون على منضدة النجار . هذا يتطابق مع الواقع وفي الوقت ذاته يقوي الصبيان في سلوكهم . في نظرهم هم الشجعان ، الفائزون ، النشيطون ، والمستقلون .

وهكذا يصبح مفهوماً ، لماذا كثير من البنات الصغيرات يفضلن التماثل مع الدور الذكري . كذلك واضح لماذا تقع البنت الصغيرة ، التي تجد الدور الذكري أكثر جاذبية ، في مأزق . فإذا ما تبعت رغباتها وتصرفت « مثل صبي » ، فإنها تتلقى انتقاداً من المربين والأقران . وإذا ماثلت نفسها للدور الأنثوي التقليدي ، فإنها تُخضع نفسها لاضطهاد حقيقي . فالبنات اللواتي يردن أن يكن أكثر من حلوات وحبّابات ، لا خيار لهن . عليهن أن يخترن أحد الشرين : غربة عن قسمتهن من الأدوار الجنسانية ؛ أو غربة عن اهتماماتهن ورغباتهن .

من خلال عرض نماذج أدوار الكبار يتعلم البنات والصبيان ما ينتظر منهم في المستقبل . وقد وجدت فايتسمان أن صورة المرأة البالغة في الكتب المصورة قد تقولبت بشكل محدود كما هي صورة البنت الصغيرة . مرة أخرى نجد المرأة سلبية ، والرجل فعالاً . النساء في البيت ، والرجل خارج البيت . النساء يقمن في البيت بوظائف خدمية حصراً تقريباً ، يعتنين بالرجل والأطفال . الرجال يقودون ، النساء يتبعن . الرجال ينقذون ، النساء يجري انقاذهن . والأدوار الوحيدة غير المقولبة هي أدوار واضحة الغيبية ، أي ليست إمكانات واقعية . أما أدوار الرجال فتظهر بالمقارنة مع أدوار النساء أغنى في تنوعها وأكثر إثارة للاهتمام . فهم مثلاً أمناء مستودع ،

معماررون ،ملوك ، قصاصون ، رهبان ، مقاتلون ، صيادو سمك ، شرطة ، جنود ، مغامرون ، آباء ، طباخون ، قساوسة ، قضاة ، أطباء وملاحون .

والنساء لا يعرفن وفقاً لما هن عليه في الواقع .فلم يوجد في الكتب المصورة الموضوعة للبحث أية امرأة ذات مهنة . وهذا في الولايات المتحدة ، حيث 40٪ من النساء عاملات ، أي ما يقرب من 30 مليون امرأة . يبدو من اللا معقول ، أن تكون النساء في الكتب المصورة أمهات وزوجات فحسب ، إذا تأملنا أن 90٪ من مجموع النساء في هذه البلاد قد انتمين مرة ، في حياتهن إلى قوة العمل .

الهدف من عرض المرأة بهذه الصورة : على البنات الصغيرات أن يوطّنّ النفس بالدرجة الأولى على وظيفتهن القادمة كربات بيوت وأمهات وزوجات ، لكي لا تخطر على بالهن مطلقاً أية فكرة أخرى . أما العمل المهني فيجب أن يبقى ثانوياً وبالصدفة ومؤقتاً . في حين يجري بصورة غير واقعية تماماً تصوير الأمومة كانشغال لطيلة العمر ، مع أنها حتى في تقسيم العمل التقليدي لا تشغل من حياة المرأة غير زمن قصير . أما ما يشغلها طيلة العمر فهي خدمة الزوج ! . كذلك فإن دور الأم نفسه يصور بشكل غير واقعي . فالمرأة تظهر دائماً تقريباً في البيت ، في الوقت الذي يتوجب فيه أخذ الأطفال مثلاً إلى حديقة الأطفال أو إلى المدرسة أو إلى الطبيب . على أن الأمهات في الواقع يذهبن للتسوق ، يستقلن السيارة الخ ، حتى أنهن يقرأن الكتب ، ويشاهدن التلفاز ، يحررن شيكات ،يعملن في حديقة البيت ، يثبتن ويصلحن أشياء في المنزل ، ينشطن سياسياً واجتماعياً الخ .

فكيف يظهر الآباء في الكتب المصورة ؟ . إنهم لا يساعدون في الواجبات اليومية مثل إطعام الأطفال أو غسلهم ، الجلي ، الطبخ ، التنظيف ، أو التسوق . وهكذا يُلقن الأطفال الصغار بصورة غير مباشرة ، بأن هذه أعمال نسائية . وإذا ما انشغل الآباء مرة بالأطفال ، فإنهم يلعبون معهم ألعاباً أخاذة أو يأخذونهم معهم في السيارة أو القطار أو الباص أو الزورق . فالأمهات لا ينفعن إلا في الأعمال اليومية ، يرتبن وراء الأطفال ويقلن لهم ما عليهم أن يفعلوه . الأمهات يبتسمن ،يداعبن ، يعاقبن أو

يصرخن . نادراً ما يعلّمن الأطفال شيئاً ، وإذا فعلن ذلك ، فبطريقة قلّما تُسرّ .

وبما أن ليونوره فايتسمان لم تجد في الكتب المدروسة من قبلها أية أدوار مهنية أنثوية ، فإنها استعانت بكتب الارشاد المهني . فحللت الكتابين الأمريكيين : « ماذا تستطيع البنات أن يعملن ؟ » و « ماذا يستطيع الفتيان أن يعملوا ؟ » ، وتوصلت إلى ما يلي : الهدف الأعلى للبنات هو أن يصرن أمهات . والهدف الأعلى للفتيان هو أن يصيروا رئيساً للولايات المتحدة . وجميع المهن المقترحة للنساء هي مهن تُمارس ضمن البيت . أما المهن الرجالية فثلاث منها فقط تمارس في البيت ، بينما إحدى عشرة مهنة خارج البيت .

تُشجع البنات الصغيرات على أن يجدن تحقيق ذاتهن في المظهر الحسن والخدمات . وعليه فليس مفاجئاً أن تتركز المهن المقترحة للنساء على « الفتنة والخدمة » . وأكثر المهن وجاهة بالنسبة للبنات هي المهنة التي تشترط الجاذبية الفيزيائية . وهكذا هو الأمر مثلاً لدى موديلات الصور ونجوم السينما . ولكن بما أنه لا يمكن إلا للقلائل من النساء في هذه المهنة أن يصبحن نجوماً ، فإن الرسالة الفعلية لهذه العروض هي : أن الوظيفة الحقة للمرأة تكمن في القناعة البيتية . في أفضل الأحوال يجوز لهن أن يصرن ممرضات أو سكرتيرات ـ هذه هي المهن الملحقة بالوظيفة البيتية للأم والزوجة . كذلك عندما يكون النساء والرجال معينين في مجال مهني مماثل ، فإن النساء يتواجدن في المجال المهني من خلال صلتهن بالرجال . فالرجال هم الأطباء والنساء هن الممرضات ، أو الرجال هم الطيارون والنساء هن المضيفات .

هنا أيضاً لا يتطابق التصوير مع الواقع : فالنساء ـ وإن في جزء ضئيل جداً منهن ـ يعملن أيضاً في « مهن رجالية » . في الولايات المتحدة مثلاً تمثل النساء سبعة بالمئة من الفيزيائيين وأربعة بالمئة من الحقوقيين . وبالرغم من أنه يوجد طبيبات منذ أكثر من 100 سنة ، فلا توجد صورة واحدة لطبيبة في الكتب المصورة المدروسة . وإذا ما عُرضت أمهات عاملات ، فعملهن يكون عندئذ لأسباب مالية فحسب . حقاً ، إن العمل المهني الأنثوي ممكن في الكتب المصورة ، ولكن فقط عندما يكون عملاً تابعاً .

ج - التلفاز في مثال « طريق سيزام »

تقدم البرامج التلفازية ، مثل الكتب المصورة ، موديلات أدوار للبنات والصبيان (للنساء والرجال) . وللآن لم تجر دراسة شاملة ، لا لمضامين هذه الموديلات ولا لمفعولاتها على البنات والصبيان . هناك فقط دراسة[7] واحدة أخذت جانب الأدوار الجنسانية بعين الاعتبار . فقد حللت مادة البرنامج المخصص للأطفال في سن الروضة « طريق سيزام » ، وهو برنامج يشاهد حتى اليوم كثيراً في ألمانيا الاتحادية .

إن منتجي هذا البرنامج يجاهرون صراحة بغايتهم ، وهي التأثير على سلوك الأدوار الجنسانية للجماعة المقصودة بشكل ايجابي ، أي بشكل تحرري : « تطوير فهم الأدوار ومرونتها ، التخلص من تثبيتات الأدوار الجنسانية »[8] . هذا هو المَطْمح ، فكيف تجلى في الممارسة ؟ . أول ما يثير الانتباه هو أن عدد الممثلين الإناث المشاركين في البرنامج أقل بكثير من عدد الممثلين الذكور . كذلك لا تستطيع الممثلات في مشاهدهن القليلة أن ينجحن إلا قليلاً : قلما يسيطرن على الحدث ، أي قلما يكن أبطالاً أو من مجموعة الأبطال في الحدث . ونصيبهن من المداخلات ضئيل جداً ، وخاصة تلك الموجهة مباشرة إلى المشاهدين . أولاً يجد المشاهدون الإناث من إمكانيات التماثل ومن الممثلين المماثلين جنسانياً ، يجدن عرضاً اسوأ من حيث العدد وقوة الحضور في المسلسل ، وثانياً إمكانيتهن أقل في أن يشعرن بالمشاركة المباشرة في البرنامج من خلال المخاطبة المباشرة من قبل بنات جنسهن[9] .

إذن هناك أيضاً نماذج أدوار أنثوية وذكرية مميزة . إن الممثلين الذكور أكثر جنوحاً « إلى أنماط تعامل اجتماعية متطرفة . وبالتحديد على السواء باتجاه التعامل العدواني كما

---

7) دراسة متتبعة للمسلسل التلفازي « طريق سيزام » (1975) . (بالعربية : افتح ياسمسم . - ب ع) .

8) المصدر السابق ، ص 26 .

9) المصدر السابق .

باتجاه السلوك الخاضع الخانع . الممثلون الإناث يسيطرن على وسط الميزان ،فهن مقموعات ، متزنات ، لطيفات ، وكذلك معلمات أكثر من الممثلين الذكور . . . فالإناث والذكور صُوروا بشكل بالغ الاختلاف »[10] . لقد صور الجنسان في أدوار اجتماعية جد مختلفة . وإنه لمن المستغرب ، أن تنفذ بهذه الكثافة « إلى الجنس المؤنث عناصر تمييزية تناقض الغايات المعلنة ، على الأقل في النسخة الألمانية »[11] .

وتقارن الدراسة الألمانية المذكورة الصيغة الأميركية للبرنامج مع الإضافات الألمانية . في الإضافات الألمانية لم يكن عدم التناسب الجنساني حاداً جداً ،ولكنه موجود . في الصيغة الأميركية 73,1 ٪ من الممثلين ذكور ، في الأجزاء الألمانية المضافة 67,5 ٪ ذكور ، « فالمقاطع الجديدة لا تصحح إذن من الميل الموجود في الأجزاء الأميركية من المسلسل . والعجيب أننا استطعنا أن نسجل على الإضافات الألمانية حالات يصور فيها اختلاف الأدوار الجنسانية بحسب التصور التقليدي للجنسين أكثر مما سجلنا على المشاهد الأميركية (مثلاً نساء في الطبخ والأعمال اليدوية والتمريض وما شابه »[12] .

ويجري تصوير الأشخاص الأناث ضمن الأسرة أكثر بكثير مما في العمل المهني ، بينما الذكور في العالم المهني أكثر مما في دائرة الأسرة . فهنا أيضاً : النساء مكانهن البيت ، والرجال خارجاً في الحياة . هذا ، في حال أنه جرى تصوير النساء أصلاً . « إلى جانب ذلك يبدو أن أهم خبرية يقدمها البرنامج من خلال الوجود الضئيل ، التواجد النادر للممثلين الإناث : أن يكون المرء امرأة يعني في مجتمعنا أنه لا أحد »[13] .

وتحلل الدراسة أيضاً تأثير نماذج الأدوار على البنات والصبيان في السنة السادسة

10) المصدر السابق ، ص 29 .

11) المصدر السابق .

12) المصدر السابق ، ص 30 .

13) برغمان ، في : ستاسي ، بيرو ، دانييلز (1974) ، المصدر المذكور سابقاً .

من العمر ، مفاعيلها على الإدراك الاجتماعي لهؤلاء الأطفال في التصورات المهنية وفهم الأدوار الجنسانية . وقد تأكد للدارسين أنه لا يمكن الحديث عن التخلص من التوجيه بالأدوار الجنسانية لدى مشاهدي طريق سيزام ، بالعكس : إن هذا التوجيه يجري بناؤه أكثر مما يجري تقويضه . فصورة الرجل في أدواره المقولبة ، حيث يلحق عمله ، وصورة المرأة ، حيث تقف وراء الموقد ، يجري تقويتها . وهذا يتبين من مقارنة مشاهدي البرنامج بمجموعة رصد لم تشاهده . والملفت إذ ذاك ، أن الصبيان الذين شاهدوا البرنامج مراراً رفضوا العمل المنزلي باعتباره غير رجالي أكثر من الصبيان الذين لم يشاهدوا البرنامج أو الذين شاهدوه قليلاً .

هذا البرنامج ذو الطموح التحريري للأدوار الجنسانية ، لم يكن غير وفي لهذا المطمح فحسب ، بل إنه زاد في الأدوار الجنسانية تثبيتاً . والأمور تبدو أغلب الظن أسوأ مع البرامج التلفازية الأخرى الأقل « تقدمية » .

د ـ أدب الأطفال

بما أنني لم أجد أية دراسة حول أدب الأطفال في ألمانيا الاتحادية (باستثناء كتب المرحلة الابتدائية) ، فإنني سوف استند إلى دراستين فرنسيتين ، « الطفل وصورته » لشومبار دولوف[14] ، و « القوالب الأنثوية » لميشيل دوويلد[15] .

في الدراسة الأولى كشف دولوف عن شيء ملفت حقاً للنظر : لقد جرى تذكير أدب الأطفال في فرنسا منذ عام 1930 . فإذا كانت نسبة الأنثوي / الذكري في القرن التاسع عشر 50 إلى 50 ، فإن الأشخاص الأنثويين لا وجود لهم اليوم تقريباً . فالكتب الموجهة إلى الصبيان ، تصور الصبيان حصراً . والكتب الموجهة إلى البنات والصبيان ، يهيمن فيها الصبيان . وفقط الكتب الموجهة إلى البنات تعرض بنات ، ولكن فقط بنسبة 43 ٪ (وتكشف الدراسة عن ظاهرة مماثلة لدى مجلات الأطفال) .

هذا الاتجاه التذكيري الذي يتضارب مع الاتجاه التحرري الظاهري ، يتجلى -

---

14) M.J. chombart de Lauwe :Lenfant et so.i'imag. in l'ecole des parents. (1972). No.3.p.14 .

15) M . de Wilde : Les stereotypes feminins : l'ecole des parents,No '.Jul /Aug 197?

فيما يتجلى ـ في إنقاص أعضاء الأسرة الأنثويين الذي يحيطون بالبطل الصغير . هذا يعني ، أن الصور التقليدية للمرأة قد أُبعدت حقاً جزئياً ، ولكن لم تُستبدل بصور جديدة . وحيث كانت البنات يعرضن سابقاً بصورة سالبة ، لا يظهرن الآن على الإطلاق . ومن هنا الاختفاء الكلي تقريباً للمجلات المخصصة كلياً للبنات ، كما أثبته دولوف .

والمقارنة بين نتائج البحث في الولايات المتحدة وفرنسا تتمخض تبعاً لدوويلد عن أنّ القالب الأنثوي في الولايات المتحدة سيدوم كما يبدو مدة أطول مما في فرنسا ، حيث قلما تذكر البنات والنساء في الكتب . كيف يبدو الوضع في ألمانيا الاتحادية ، هذا ما يزال يحتاج إلى البحث .

الفصل الخامس

قوالب الأدوار الجنسانية والتماثل الجنساني

إن تصوير الجنسين في مختلف وسائل الإعلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقييم الاجتماعي لـ « المؤنث » و « المذكر » . هذا ما تبينه بكل وضوح نتائج بعض الأبحاث حول قوالب الأدوار الجنسانية . في دراسة أعدّتها إفلين غودنو بيتشر[1] وتضمنت استفتاء للأمهات والآباء ، وصفت النساء بأنهن بالمقارنة مع الرجال : غير مباشرات ، غير منطقيات ، أكثر إطناباً ، ماكرات ، مخادعات ، حدسيات وذاتيات . أما الرجال فقد وصفوا بأنهم : تحليليون ، دقيقون ، تجريديون ومباشرون .

وقام أ . م . روشوبلاف ـ سبنليه[2] ببحث ألماني ـ فرنسي مقارن بعنوان « الأدوار الذكرية والأنثوية » ، حدّد فيه 121 صفة كي توزع ما بين الأناث والذكور وما بين المحاسن والمساوىء . فنُعتت النساء بـ 14 سيئة و 3 محاسن ، ونُعت الرجال بـ 17 حسنة و 7 مساوىء .

وأخيراً ، بحسب دراسة أعدها شيريفس وجاريت[3] بدت المرأة النموذجية على الشكل التالي : ضعيفة القدرة على التفكير والحكم المنطقي ، تجد إشباعاً في أحلام اليقظة أكثر مما تجد في الحياة الواقعية ، تهتم بالاتصالات الاجتماعية والشخصية أكثر من الرجال . أما الرجل فإنه يتمتع بتوازن عاطفي في حالات الأزمات ، يسترشد في أفعاله بالوقائع الموضوعية أكثر مما يسترشد بالمشاعر اللاعقلانية ،لا يغتاظ بسهولة من التوافه

---

1) غودنو بيتشر (1974) ، المصدر المذكور سابقاً .

2) A.M. Rocheblave- Spenle Les Rôles masculins et feminins. in: Miahelle de Wide (1972) .

3) A.M.Sherriffs and R I Jerret Sex differance in attitudes about sex differences, in : J. of Psychol 1953, s.161 – 168.

كالمرأة ،وهو أكثر جرأة وذكاء منها .

ويتبينّ في جميع الدراسات ، أن سلوك النساء يقاس دائماً بالسلوك « الرجالي » : الإنسان يساوي الرجل(*) .

هذا الاحتقار الاجتماعي للنساء يجد تعبيره الدرامي في الصورة التي يختلقها الأطباء النفسيون عن المرأة . في هذه الصورة يبدو جلياً أن « الأنوثة » لا تعتبر شيئاً « مغايراً » ، بل « شاذاً » . الأنوثة تساوي الشذوذ ، المرض . على سبيل المثال سئل من قبل انغه بروفرمان ومساعديها(4) 33 طبيبة متمرنة و 46 طبيباً متمرناً عن قوالبهم للأدوار الجنسانية . وكان على مجموعة من هؤلاء الأطباء المتمرنين المستفتين أن تصف ، استناداً إلى بروفيل من الجانبين ، شخصاً بالغاً غير محدد الجنس ، معافى نفسياً ، ناضجاً وذا سلوك لائق اجتماعياً ، وكان على مجموعة ثانية أن تصف رجلاً على هذه الشاكلة ، وعلى مجموعة ثالثة أن تصف امرأة على هذه الشاكلة . فطابقت صورة البالغ المعافى نفسياً تماماً صورة الرجل المعافى . لكن صورة المرأة بدت ـ بالقياس للصورة الرجالية ـ على الشكل التالي : خاضعة ، تابعة ، سهلة التأثر ، أقل عدوانية ، أقل طموحاً ، مشاعرها سهلة الإيذاء ، تحتد بسهولة لأقل الدواعي ، أقل موضوعية ، تتصرف بعاطفية ، عديمة الاهتمام بالرياضيات والعلوم الطبيعية إلخ . هذه النتائج تشير بوضوح إلى أنه لدى هذه التصورات لـ « الأنوثة » لا يدور الأمر بأي حال حول « مغايرة » المرأة بل حول دونيتها .

ويشارك في هذا التقييم العام بنات وصبيان بعمر ثماني سنوات . فقد استفتت ميشيل دوويلد(5) بنات وصبياناً بهذا العمر : من هو الأذكى ، الأب أم الأم ، ا لصبي

---

*) في الانكليزية man . وفي الفرنسية homme تعنيان الرجل والانسان معاً ، وفي الألمانية man تعني المرء (أي الانسان) و mann تعني الرجل .ـ ب . ع .

4) I.D. Brovermann: sex – role stereotypes and clinical judgements . (Mental Health, in: Jaurnal of Consulting and Clinical Psychology 1970 Bd. 34 . P.1–7.

5) ميشيل دو ويلد (1972) ، المصدر المذكور سابقاً .

أم البنت ؟ . فكان البنات والصبيان متفقين على أن الآباء أذكى من الأمهات . إلا أنهم ذهبوا إلى أنه لا توجد فروق في الذكاء بين البنات والصبيان . يستدلّ من ذلك على أن البنات يقبلن في الحقيقة بالدونية المستقبلية للنساء ، لكنهن يظهرن في الوقت الحاضر مقتنعات تماماً بتساويهن مع الجنس الآخر .

وقد قام دانهاور[6] بأبحاث ميدانية مستفيضة على 450 طفلاً من أطفال الروضة (في ألمانيا الديمقراطية) ، كي يتأكد متى يتسنم البنات والصبيان وأية جوانب من قوالب الأدوار الجنسانية . فسأل :

- أي طفل أكثر تهذيباً ، الصبي أم البنت ؟
- أي طفل أقوى ، الصبي أم البنت ؟
- أي طفل يستمع ، عندما تقول الأم شيئاً ، الصبي أم البنت ؟
- أي طفل يساعد بجد أكبر ، الصبي أم البنت ؟
- أي طفل أسرع في قيادة الحجالة ، الصبي أم البنت ؟

وقد أجابت البنات من فئة السن 3,6 ـ 3,7 سنة : « البنات يساعدن الأم بجد أكبر من الصبيان » . وأجاب الصبيان من نفس فئة السن : « الصبيان أقوى ويقودون الحجالة أسرع من البنات . والمثير للاهتمام في هذه النتائج ، أن الفروق الجنسانية الحقيقية في هذه السن بخصوص القوة والسرعة ،على سبيل المثال لدى قيادة الحجالة ،ما تزال ضئيلة إلى أبعد الحدود . فتأثير قوالب الأدوار الجنسانية هنا أقوى من الواقع . وهذا لا يصح طبعاً على المساعدة الجادة : فالبنات يساعدن في هذه السن فعلاً أكثر من الصبيان .

إن تقدير القوة والسرعة لدى صبيان هذه الفئة من السن ليس صادراً عن تجربة شخصية ، بل على الأغلب عن قوالب الأدوار الجنسانية الملقنة كلامياً ومن خلال وسائل الإعلام . وكلما صار البنات والصبيان أكبر عمراً ، ازدادت قوالب السمات التي يقتبسونها . فالبنات بعمر 4,7 سنة يقلن عن أنفسهن : البنات أكثر تهذيباً واجتهاداً

6) دانهاور (1973) ، المصدر المذكور سابقاً .

وضعفاً من الصبيان . والصبيان يقولون : الصبيان أقوى وأسرع وأوقح .

وبدءاً من 5,6 سنة من العمر تجري الإجابة على جميع الأسئلة المذكورة أعلاه بصورة قوالبية . هذا يعني أن قالب الأدوار الجنسانية قد أصبح في السن البالغة 5,6 سنة مصاغاً بشكل ثابت . أي أن قوالب الأدوار الجنسانية تكون ، حتى قبل أي يذهب الأطفال إلى المدرسة ، مقبولة إلى حد بعيد .

وقد تقصّى دانهاور مسألة ، إلى حد يمتلك البنات والصبيان في السن البالغة 3,6 ـ 3,7 سنة على قوالب أدوار عامة للمرأة والرجل . وقد أشارت النتائج إلى أن البنات والصبيان في سن 3,6 سنة لديهم نوع من الموديل عن الحياة المشتركة للمرأة والرجل ضمن الأسرة . سأل دانهاور : عليك أن تقول لي ، ما إذا كان الأم أم الأب يقوم بـ :

- طبخ الطعام .
- قراءة الكتب .
- التسوق .
- تنظيف الحجرة .
- الجلوس أمام التلفاز .
- غسل الغسيل .
- قراءة الصحف .
- خياطة الأزرار .
- شرب البيرة .
- تدخين السيجار .

وقد أجاب البنات والصبيان : الأم تطبخ الطعام ، تتسوق ، تنظف الحجرة ، تغسل الغسيل ، تخيط الأزرار . والأب يقرأ الكتب ، يجلس أمام التلفاز ، يقرأ الصحف ، يشرب البيرة ، يدخن السيجار . إن نتائج هذه الأبحاث المعدة في ألمانيا الديمقراطية لن تكون في ألمانيا الاتحادية بأية حال أقل قوالبية .

ومع الوعي بالانتماء الجنساني ، بالتماثل الجنساني يمكن لقوالب الأدوار الجنسانية هذه أن تصير ، وهي ستصير إلى نوع من « المؤثر الجواني » على السلوك . غير أن مدى ونوع هذا المفعول لم يحدد بأي شكل علمياً حتى الآن .

وحول تطور التماثل الجنساني أجرى بيكر[7] تجربة اختيار على أطفال صغار من مرحلة السن 2,1 ـ 4,0 سنة . فأعطت النتائج ، أن أغلبية البنات والصبيان من فئة السن 3,1 ـ 3,6 سنة قد توصلوا إلى الدرجات الأولى حتى الثالثة من التماثل الجنساني . وها هي الدرجات الأربع لدى بيكر :

1 ـ القدرة على التفريق بين الجنسين .

2 ـ تصنيف الذات جنسانياً في تجربة الاختيار (مرحلة واضحة بشكل ملموس) .

3 ـ التصنيف اللغوي لجنس الطفل .

4 ـ القدرة على إقامة الصلة بين الشكل اللغوي لجنس الطفل وشكله عند الراشدين .

قبل السنة الرابعة من العمر لا يستطيع البنات والصبيان أن يقرنوا بين جنسهم الخاص ودور الراشدين . ولتحديد الجنس يسترشد البنات والصبيان من فئة السن 2,7 ـ 3,0 سنة بعلامة الثياب . أما الأطفال من فئة السن 3,7 ـ 4,0 سنة فإنهم يسترشدون في الغالب بشكل وطول الشعر (تجربة الدمى) .

على أن تطور التماثل الجنساني وقالب الأدوار الجنسانية ليس بأية حال بمثابة القبول به ، في المقام الأول ليس عند البنات ، حيث أن دورهن الجنساني ليس متدنياً في التقييم فحسب ،بل هو في الواقع أقل قيمة (أي أنه يقدم إمكانات سلوك ومعايشة أسوأ وأضيق ، كما يتضمن الخضوع والتبعية وتأدية الخدمات) . فعلى النقيض من الدور الجنساني الذكري ، ليس للأنثوي إذن بالنسبة لكثير من البنات قوة جذب إيجابية ـ وهذا شرط للقبول بالدور والاضطلاع به . غير أن القبول بدور ، بواقع يتضمن خنوعاً

7) بيكر ، لدى : دانهاور (1973) .

واضطهاداً واستغلالاً ، غير ممكن إلا بالقسر .

إلا أن هذه الازدواجية المحتومة للأدوار الجنسانية لدى البنات لا تفسّر لدى أعلب المؤلفين كتمرّد على واقع تمييزي ، بل كـ « بلبلة » من جراء فقدان التحديد الواضح لأدوار الطرف الأنثوي . وللبرهان على هذا التصور تقدم الحجة ، بأن البنات ، اللواتي عندهن أخوة أصغر منهن ، لا تنشأ لديهن مثل هذه الازدواجية للأدوار الجنسانية من خلال واجبهن تجاه هؤلاء الأخوة . بالفعل أظهرت هذه البنات في الأبحاث الميدانية قدراً أكبر من الاهتمامات « الأنثوية » . إلا أنه يُظن ، بأن هذه البنات الصغيرات اللواتي كان عليهن في وقت مبكر جداً أن يقمن بقدر كبير من الواجبات البيتية لم يعد أمامهن فعلاً سوى أن « يهتممن » بالأشغال « الأنثوية » . ذلك لأنه عليهن ، سواء أردن أم لم يردن ، أن يرعين الأخ الرضيع ، ويخدمن الأخوة والآباء ، ويتسوقن ويجلين إلخ . إنهن يستسلمن للمقدور .

وثمة دراسة لهارتلي وهاردستي وغورفاين[8] ، تبحث في التماثل الجنساني لبنات في سن 8 ـ 11 سنة ، تبين إلى أي مدى يتعلق القبول أو الرفض للدور الأنثوي بشكل ملموس بالمضامين المقدمة فيه . فظهر أن البنات ، اللواتي أمهاتهن غير عاملات ، يتمثلن غالباً بدور الأب ويفضلن عموماً بشكل واضح الدور الذكري . أما البنات اللواتي أمهاتهن عاملات ، فإنهن يماثلهن أنفسهن بدرجة أقوى مع الأمهات و « يقبلن » من هذا المنظور الدور الأنثوي أكثر مما تفعل ذلك البنات اللواتي أمهاتهن غير عاملات .

وهذا ليس عجيباً ، إذ أن دور وواقع الأمهات العاملات أقل انحصاراً وتبعية من دور وواقع الأمهات غير العاملات ، وتمتلك الأمهات العاملات بالقياس إلى الأمهات غير العاملات على سلطة قرار أكبر (انظر بهذا الخصوص الدراسة الممتازة لأندريه ميشيل[9] حول تأثيرات عمل المرأة المهني على الزواج والأسرة) .

ومما يعبر عن دونية الدور الأنثوي ، الواضحة منذ البداية ، الدراسات المعدة

8) غودونو بيتشر (1974) .

9) A.Michel: Activité Professionelle de la femme et vie conjugale, Paris 1974

حول ازدواجية الأدوار الجنسانية ،حيث يتأكد دائماً من جديد ، أن البنات من مختلف مراحل العمر أقل طواعية بكثير من الصبيان لتقبل دورهن الجنساني . وقد أثبتت شومبار دولوف[10] ، أن 45 ٪ من البنات المشمولات بالبحث قد أبدين إعجابهن بأشخاص ذكور في أدب الأطفال وتمثلن بهم . وأن 15 ٪ فقط من الصبيان الصغار اختاروا أشخاصاً إناثاً ، بينما 85 ٪ من الصبيان رغبوا بأن يكونوا مثل واحد من الأبطال الذكور . وعلى السؤال : « هل تتمنى أن تكون بنتاً أم صبياً؟ » ، أجابت 11 بنتاً من أصل 100 بعمر 3 سنوات : « أتمنى أن أكون صبياً » ، بينما من أصل 100 صبي أجاب واحد فقط : « أتمنى أن أكون بنتاً » ، (وتدعم هذه النتائج أبحاث أميركية عديدة[11]) .

وقد وضّح أولئك البنات والصبيان ،الذين رفضوا الدور البناتي ، أن البنات عليهن أن يساعدن في تدبير المنزل أكثر من الصبيان ، وأنهن لا يحزن على إمكانات مهنية بقدر الصبيان ، وأنه يمكن للصبيان أن يمارسوا الرياضة أفضل من البنات (هذا ما جاء في نتائج بحث دانهاور[12]) . وغني عن البيان أن هذا التفضيل لدور الذكور هو نتيجة للتقييم الاجتماعي ولواقع الوجود النسائي .

يمكن القول إذن ، إن قبول الدور الجنساني من قبل البنت لا يجري عموماً دون مقاومة . وبالطبع فإن هذه المقاومة ما تزال نسبياً بلا أمل . وتبين الدراسات المستشهد بها ، كيف أن البنات ، وقد جرى من مرحلة إلى أخرى إشراط تطورهن بصورة مميزة جنسانياً ،قد قسرن على الدور الجنساني .

ويشير عدد كبير من الدراسات إلى أن قبول البنت بالدور الجنساني ليس فعلاً يتم دفعة واحدة . وهذا ما توصل إليه أيضاً ستن ـ سميث وروزنبرغ ومورغان[13] في

10) شومبار دولوف (1963) .

A. Gesell: the first 5 years of live, New York 1940

11) Carmichael: Manual of child development, New York 1954

12) دانهاور (1973) .

13) ستن ـ سميث ، روزنبرغ ، مورغان .

اختباراتهم على حوالي ألف طفل بعمر 8 ـ 11 سنة بخصوص الاهتمام باللعب . فلدى الصبيان يمكن أن يسجل منذ الطفولة الباكرة صعود مستقيم للاهتمامات « الذكرية » . لا عجب ،فالدور « الذكري » يحتوي حقاً على انتقاصات ، لكنه يقدم نسبياً الكثير من الامتيازات والمكاسب الفعلية . أما لدى البنات ، فبعد مرحلة من القبول بالدور الجنساني الخاص بهن (في السن من 8 ـ 9 سنوات) ، تُلاحظ لديهن ثانية فترة اضطراب . من ثم ، في السن من 9 ـ 11 سنة تتراجع الاهتمامات « الأنثوية » لصالح الاهتمامات « الذكرية » .

B.Suton – Smith, B.G.Rosenberg and E.F.Morgan: Development of sex differences in play Choices durig preadolescence, in: child Development 1963, 34, P.119–126

خلاصة البحث

انطلاقاً من النظرية القائلة بأن الفروق النفسية والفيزيولوجية القائمة في الوقت الحاضر بين الجنسين (باستثناء الفروق البيولوجية المرتبطة مباشرة بوظيفة الحمل والإنجاب) ما هي إلا نتائج للعلاقات الاجتماعية السائدة بين الجنسين ـ لتقسيم العمل بين الجنسين ـ ، انطلاقاً من هذه النظرية حاولت أن أبين الأواليات التي يجري من خلالها (إعادة) إنتاج هذه الفروق ضمن عملية جمعنة الجنسين . هذا يعني ، أنني صببت اهتمامي قبل كل شيء على العمليات التي تخلق نواة ما يسمى بالخصائص والقدرات « الأنثوية » .

وقد تركز الاهتمام على شرح هذا بالنسبة للمجال الذي تجاهله حتى الآن علم النفس التطبيقي (البورجوازي والاشتراكي على حد سواء) أو على الأقل لم يتناوله بشكل منهجي . لقد تقصى علم النفس التطبيقي حقاً إلى حد بعيد مسألة نشوء وتطور الفروق الجنسانية ، ولكنه ما زال دون الحد المطلوب . إنه لم يطرح مسألة التسبب والاشتراط الاجتماعي الكلي للفروق الجنسانية بما فيه الكفاية من الجذرية . ذلك لأنه لم يتحر حتى الآن عن ذلك الجانب الحاسم بالذات ، الذي يشكل ظاهرياً كنه « الأنثى » و « الذكر » . بذلك فهو يساهم بصورة حاسمة في إضفاء الشرعية على الاضطهاد النوعي للنساء في مجتمعنا . وما تسمى خصائص « أنثوية » (العاطفية الزائدة ، الاهتمام بالأشخاص ، السلوك الاجتماعي ، عاطفة الأمومة إلخ .) لا توضع موضع تساؤل ، لا في علم النفس التطبيقي ولا في النظرية الاشتراكية العامة . فتعتبر تبعات الجمعنة الجنسانية المميزة أسباباً ، وهذا ، مع أنه يمكن اليوم أن نثبت علمياً بدقة ، كما أمكن لي شخصياً في هذا الكتاب ، المشروطية الاجتماعية « للأنوثة » .

كذلك فإن المنظرين الاشتراكيين ينطلقون من « مغايرة » الجنسين لبعضهما ،

وهذا يعني فعلياً دونية النساء . ومن أعراض ذلك ، أن السلوك « المغاير » للنساء يقاس على السلوك « الذكري » الذي يعتبر معياراً : بذلك يكون ما هو « أنثوي » صميم ، في التقييم والواقع ليس « مغايراً » فحسب ، بل أيضاً دونياً . وهو يساعد على تبعية شخصية أكبر للنساء ويستتبع استغلالاً أقوى في مجال الإنتاج وإعادة الإنتاج .

لقد رأينا ما يعتبر طبيعة « الأنثى » و « الذكر » وفرقاً « طبيعياً » بين الجنسين ، قد أحاط به اختبارياً غاراي وشاينفلد منذ الشهر الثالث من عمر الطفل[1] . فأثبتا في بحثهما ، أن البنات في سن ثلاثة أشهر يستجبن للمثيرات السمعية أكثر من الصبيان . وقد فُسِّر هذا الاهتمام بالأصوات على أنه مرتبط باهتمام البنات الخاص بالناس . ثم ظهر هذا الاهتمام الخاص بالناس في دراسة لاحقة لدى بنات في سن ستة أشهر . هنا استجابت البنات بشكل خاص على صور الأشخاص . فاهتمام البنات الزائد بالناس قد تكوّن إذن في هذه المرحلة . (وكذلك الاهتمام الزائد للصبيان بالأشياء . فهؤلاء استجابوا في سن ثلاثة أشهر بشكل أقوى لمثيرات بصرية ، وبسن ستة أشهر استجابوا أكثر لصور الأشياء) .

وحتى لو ظهرت هذه الفروق بين البنات والصبيان في ذلك الوقت المبكر ، فإنه لخطأ علمي عدم التمحيص ما إذا كانت هذه الفروق مع ذلك تبعات لأواليات تربوية مميزة . وقد بينت دراسة موس[2] بوضوح ، أية أواليات جنسانية مميزة في تربية الطفولة الباكرة تتسبب في هذه الفروق . فالبنات الصغيرات تُستثرن سمعياً أكثر والصبيان بصرياً أكثر . وهذا منذ الأسبوع الثالث من العمر ، إذن قبل حصر الفروق بمدة طويلة .

إذن فطالما أن الأبحاث لا تتقصى الأمر حتى إلى الولادة ، فإنه يمكن إعادة التبعات (الظاهرة باكراً) للمعاملة الجنسانية المميزة إلى فروق جنسانية فطرية .

هذا الفرق الأساسي ظاهرياً ، وهو ما يسمى طبيعة « الأنثى » ، يصبح مع

---

1) غاراي وشاينفلد (1968) ، المصدر المذكور سابقاً .

2) موس (1970) ، في المصدر المذكور سابقاً .

ازدياد عمر البنت الصغيرة أكثر بروزاً . فقد لمس غولدبرغ ولويس وكاغان[3] ميدانياً في بحث على بنات بين 12 ـ 13 شهراً ازدياداً في التبعية الفيزيائية والنفسية . في « حالة اللعب الحر » كانت البنات الصغيرات يرجعن إلى أمهاتهن أسرع بكثير من الصبيان ، كن يقمن بمحاولات عودة فيزيائية وبصرية أكثر من الصبيان . أما لدى الصبيان الصغار فقد وجد الباحثون المذكورون استقلالية وتوجهاً أكبر نحو العالم المحيط .

كذلك هنا ، سرعان ما يجري الحديث عن سلوك « أنثوي » صميم و « ذكري » صميم . فهذا يتوافق جيداً مع التصور بأن البنات بطبيعتهن المزعومة أكثر تعلقاً بالأشخاص ، وأن الصبيان أكثر تعلقاً بالأشياء . وهنا أيضاً يمكن اكتشاف التأثير المتباين للمربين على الجنسين الذي يتسبب في هذا الفرق . فتشير نتائج دراسة لفترة أبكر ، أجراها لويس وكاغان[4] إلى أن الأمهات يربين بناتهن في سن 6 أشهر بشكل حاد على التبعية من خلال ما يسمى « سلوك الطريقة المقربة » . ففي مرحلة التطور التي يصبح فيها الأطفال فيزيولوجياً مستقلين ، حيث يتحولون فيزيائياً عن المربين ، يجري ربط البنات الصغيرات ربطاً وثيقاً بأمهاتهن ، بينما تجري تربية الصبيان بصورة متزايدة على الابتعاد عن الأم والتوجه نحو العالم المحيط من خلال ما يسمى « سلوك الطريقة المبعِّدة » .

ويبدو الأمر أخطر من ذلك ، إذا استعدنا إلى الذاكرة نتائج بحث موس التي أثبتت أن البنات لا تجري استثارتهن بشكل « مغاير » فحسب ، بل منذ الأسبوع الثالث من عمرهن بشكل منقوص . هذا يعني بتعبير ملموس ، أنهن يلقين في الأسابيع الأولى من حياتهن من المخصصات الضرورية لتطورهن أقل بكثير من الصبيان . فالبنات يُستثرن لمسياً وحسحركياً أقل بصورة معتبرة من الصبيان وتقيد حركيتهن أكثر من الصبيان . كذلك يلقى الصبيان في الشهر الثالث من عمرهم استثارة أعظم للنشاط العضلي . وتلقى هذه الأسس الأولى للتطور فيما بعد المزيد من التشجيع في ممارسة

3) غولد برغ ، لويس ، كاغان (1969) ، المصدر المذكور سابقاً .
4) كاغان ولويس (1965) ، المصدر المذكور سابقاً .

الرياضة بانتظام .

كذلك مع الولادة تبتدىء تربية البنات تربية مكوّنة للاهتمام بالأشخاص اهتماماً مميزاً (والاهتمام بالأشياء بالنسبة للصبيان) . وقد رأينا أن البنات يجري ارضاعهن واطعامهن بصورة مغايرة للصبيان ، وأنهن يعاملن معاملة أقل استقلالية بكثير مما يعامل الصبيان . وأنه يتوجب عليهن أن يتعلمن باكراً جداً الاسترشاد بخطة الأم وأن يخضعن حاجاتهن للآخرين . هذه التربية المبكرة على الخضوع والتكيف تضاف في مفعولها إلى التربية على الاهتمام بالناس وكذلك إلى التربية على التعلق الزائد واللطافة ، لدى البنات . أما لدى الصبيان فتضاف إلى التربية على الاهتمام بالأشياء التربية على الاستقلالية والقيام بالذات .

من خلال ذلك يجري في السن ما بين سنتين إلى أربع سنوات إرساء ما يسمى طبيعة « الأنوثة » : العاطفية الزائدة والاهتمام بالشخاص والسلوك الاجتماعي . هذا ما تفصح عنه نتائج الدراسة المعدة من قبل افلين غودونو بيتشر[5] ، حيث كتبت : « لقد قمت باختبار بسيط . أعطيت الأطفال أوراقاً وأقلاماً ورجوتهم أن يرسموا شيئاً ما . بالتأكيد ، الأطفال ما بين سنتين وأربع سنوات من العمر يخربشون ، إنما يمكن للمرء أن يسألهم عن المحتوى . والنتيجة كانت أخاذة : أكثر من 50٪ من البنات رسمن ، كما قلن ، **أشخاصاً** ، بينما لم يفعل ذلك سوى 15٪ من الصبيان . الصبيان رسموا على الغالب أشياء . . .

ورسومات البنات كشفت عن اهتمام **بالأسرة والأخ الرضيع والنشاطات المنزلية واللباس** (التشديد من المؤلفة) . وهذا ما لم يظهر لدى الصبيان . وعندما كن يسألن عما رسمن ، كن يضفين على رسوماتهن ، أي على الأشخاص والأشياء ، حياة وفعلاً : « سوزي بالزحافة ، غافية » أو « رجل بقميص برتقالي اللون وشعر أبيض ، مثل جدّو ، حافي القدمين في الحشيش لأنه صيف » الخ . . . أما الصبيان فقد كانوا يرسمون عادة الأشياء الجامدة فقط ، وبرهنوا على أنهم أقل اجتماعاً وأقل خيالاً .

5) غودنو بيتشر (1974) ، المصدر المذكور سابقاً .

وتوضح بيتشر ذلك في نص آخر ، حيث تحلل حكايات مختلفة (360) لبنات وصبيان في أعمار تبلغ ما بين سنتين وخمس سنوات . وقد أسفر التحليل عن أن البنات ينزعن إلى تصوير الناس أكثر حيوية وواقعية وإلى التمثل بشخصيات ومعايشات الآخرين . وكثيراً ما قصصن محادثات مباشرة ، كما أدركن الناس بصورة أكثر فردية وميزنهم بالأسماء . في الجهة المقابلة يتحدث الصبيان أكثر بكثير عن الأشياء ، ويبدون مأخوذين بالشاحنات والماكنات الخ .

واهتمام البنات بالأشياء موجه نحو الحاجيات الشخصية والمنزلية ونحو الطبيعة من أوراق وأشجار وأزهار . وتذكر البنات أهلهن أكثر ، ويعبرن أكثر عن عواطفهن تجاه الأهل ، لا سيما تجاه الأم ، بينما حتى عندما يستجيب الصبي بشكل قوي للأم والأب ، فإنه نادراً ما يفصح عن ذلك بشكل مباشر .

نحن نرى إذن ، أن هذا الاهتمام الزائد والبارز فيما بعد بالأشخاص لدى النساء يجري إنتاجه وارساؤه باكراً جداً . على أنه يجب فرضه دائماً من جديد . ذلك لأن التبعية والاستغلال المرتبطين به كبيران جداً .

مع ازدياد العمر لا يبقى محيط البنت ، كما هو لدى الصبي ، في تشعب وتنوع مستمر ، بل يتم تدريب ، يتكامل شيئاً فشيئاً ، على القدرات « الأنثوية » المميزة . البنت « تربط بالبيت » ، والصبي يعيش « العالم في الخارج » .

من أجل هذه الخصائص « الأنثوية » المميزة تُربى في البنات عاجلاً قدرات « أنثوية » مميزة ، وتُستخدم وتُستغل بسرعة . فيجري سريعاً جداً فطام البنات ويجري باكراً دفعهن إلى أن يأكلن ويلبسن بأنفسهن وإلى أن ينظفن . إنها استقلالية لتخفيف عبء العمل عن المربين . فالبنات يتعلمن باكراً جداً نوعاً من المسؤولية عن الذات والاهتمام بالذات ، يتعلمن أن لا « يستئمّن »(*) .

هذه المهارات الملموسة المخففة لعبء العمل هي سوابق للنشاطات التي يتحتم

---

*) في « المنجد » أمّت المرأة : صارت أماً . تأمّمت واستأمّنت : اتخذت لها أماً . المقصود هنا ، أن لا تحتاج البنت إلى رعاية الأم ـ ب . ع .

على البنات الصغيرات أن يمارسنها في سن الروضة ، المساعدة في الأعمال المنزلية وفي الغالب أيضاً تربية الأخوة . فعليهن مثلاً حالما يستطعن الأكل لوحدهن ، بعد فترة التدريب على الدمى ، أن يطعمن أخوتهن . وكذلك الأمر في العمل المنزلي . أما الصبيان فيجوز لهم أن يقوموا ببعض الأعمال . ولا ينتظر منهم بأي حال ، أن يأكلوا ويلبسوا لوحدهم وأن ينظفوا باكراً . إن تطوير قدراتهم ليس منصباً بهذا الشكل الهادف على التخفيف العاجل من عبء العمل عن المربين ، بل على تطوير واسع لمختلف القدرات . إن هذا التوجيه للقدرات « الأنثوية » المميزة على مجال العمل البيتي وتربية الأطفال ، يعني إعداداً لنشاطات خدمية مميزة ، بما يتوافق مع انفراد المرأة بالمسؤولية في حقل إعادة الانتاج ومع النشاطات « الأنثوية » في حقل الانتاج . كذلك يتواجد هذا التوجيه للقدرات « الأنثوية » المميزة في اللُعب المميزة جنسانياً ، في المواد الإنشائية المميزة جنسانياً . ويتوسع استغلال هذه القدرات مع بداية سن الروضة من خلال النشاط الملموس للبنات في تدبير المنزل .

ويجري التدريب على هذه المهارات « الأنثوية » باكراً لدرجة أنها تصير منعكسات « طبيعية » في ظاهرها (مثل منعكس هدهدة الدمى) . يضاف إلى ذلك أن الصبيان يُستبعدون بصورة منهجية من هذا المجال ولا يمكن لهم ولا يتحتم عليهم أن يكتسبوا أية مهارات ، بحيث أن التضاد بين سلوكهم وسلوك البنات يكون قوياً جداً (بالمقابل فإن أمام الصبيان مجالات أخرى كثيرة تُستبعد منها البنات استبعاداً شبه تام) .

فنحن نرى ثانية ، أن الأمر لا يدور حول « مغايرة » في التربية ، بل حول قابلية استغلال قوية مغروسة في البنات بشكل مقصود ، وحول محيط مقصور على المجال البيتي أو النشاط « الأنثوي » خارج البيت .

هذه الطبيعة « الأنثوية » المرباة هكذا على خصائص وقدرات مميزة يجري تثبيتها في سن الروضة . وهذه الخصائص والقدرات المكتسبة حتى هذه السن تُنمّى من ثم ضمن ترابط أكبر وتُدمج في كامل الوجود . وفي سن الروضة يجري اكتساب خصائص وقدرات جنسانية جديدة .

في بداية سن الروضة يحوز البنات والصبيان على جملة من القدرات المختلفة التي تلقى في سياق التطور في سن الروضة مزيداً من الاختلاف . إذ ذاك يكون لألعاب الأدوار والألعاب القواعدية والإنشائية أهمية حاسمة . يضاف إلى ذلك تأثير نماذج الأدوار الجنسانية عبر مختلف وسائل الاعلام ، مثل الكتب المصورة والتلفاز الخ . والجديد في هذه السن ما ذكر عن الاستفادة الفعلية من المهارات « الأنثوية » من خلال المساعدة المتنظمة للبنت في العمل المنزلي وتربية الأطفال ، التي تبقي الصبيان معفين منها بشكل كامل تقريباً . يضاف إلى هذه الخدمات الفعلية خضوع البنت الصغيرة للصبي الصغير ، خضوعاً تدرب عليه بصورة مشددة من خلال لعب الأدوار . وهكذا لا تضطلع البنت في هذه السن بالوظائف والنشاطات المميزة جنسانياً في شكلها اللعبي فحسب ، بل تتحمل أيضاً علاقات التسلط الجنسانية الجدية .

إن الفصل بين « داخل » البيت و « خارج » البيت يشتدّ . ومواجهة البنات والصبيان لمحيطهم تحدد بصورة أساسية مواضيع لعبهم . وبما أن مواجهة البنات لمحيطهن محصورة ، ضيقة وداخلية ، فإنهن لا يستطعن أن يشخّصن في لعبهن إلا جزءاً ضئيلاً من هذا المحيط . وكذلك في الرياضة يجري بصورة منتظمة تشجيع القوة « الذكرية » والرشاقة « الأنثوية » .

ومن الملفت أنه يحق للبنات أحياناً أن يلعبن بلعب الصبيان ، وأن يقمن بأدوار صبيانية وأن يلبسن ثياباً صبيانية ، إنما لا يحق للصبيان بأية حال أن يقوموا بأدوار البنات . « فالذكري » مسموح للنساء بصورة استثنائية ، أما « الأنثوي » فهو معيب على الرجال بصورة مطلقة .

إلى جانب هذه التربية من خلال النشاطات المباشرة ، اللعبية أو الجدية المبتدئة ، يظهر في سن الروضة تاثير موديلات الأدوار الجنسانية عبر وسائل الاعلام . فمن خلال وسائل الاعلام بالذات تتعلم البنات الصغيرات والصبيان الصغار بعض الشيء عن العالم خارج معايشتهم المباشرة . فتختبر البنات ما هو صحيح بالنسبة لهن وما هو خاطىء ، يختبرن ما ينتظره المحيط منهن . ويتعلمن بعض الشيء عن المعايير التي تحكم

الصلات بين الكبار ، عن الإخضاع والخضوع الذكري / الأنثوي والنشاطات « الأنثوية » و « الذكرية » المميزة . لقد رأينا أن نماذج الأدوار المميزة جنسانياً تصور في وسائل الاعلام بصورة أقسى مما هي في الواقع . هذا يعني أن وسائل الاعلام ليست مرآة لعلاقات السيطرة الجنسانية ، بل هي فوق ذلك أداة لتحوير هذه العلاقات والمحافظة عليها .

تطلعات

السؤال المطروح هو ، ما العمل الذي يتوجب القيام به أثناء النضال ضد الاضطهاد والاستغلال عامة لمواجهة الاضطهاد النوعي للنساء وسيطرة الرجال على النساء . إن السؤال متشعب ويتطلب إيضاحاً على عدة مستويات . في الحقيقة ، نحن نملك الآن في نضالنا ضد اضطهاد المرأة هدفاً ماثلاً وهو تحررها الجذري من حبسها ضمن ما يسمى جوهرها « الطبيعي » ، الأمر الذي يترافق مع زعزعة « المبدأ الرجالي » ، أي المعايير والقيم البطريركية . غير أننا لا نملك بعد تحليلاً وتنظيراً شاملاً للاضطهاد الجنساني وترابطه مع الاضطهاد الطبقي ، وبالتالي لا نملك بعد أية استراتيجية نهائية . ممارستنا العملية يجب أن تمحص وتطور منطلقاتنا النظرية الحالية .

إن محاولة الشرح النظري يجب قبل كل شيء أن تنطلق من حقيقة أن الفروق البيولوجية ليست سبباً لمنزلة النساء المميزة في مجتمعنا . ويجب التبصّر في أنه لا يوجد جوهر « طبيعي » فوق تاريخي للمرأة (أو للرجل) . يجب الانطلاق من أن جميع الفروق الممكن وجودها اليوم ، والتي تتجاوز الوظيفة المباشرة للحمل والولادة ، هي نتيجة التخصيص الوظيفي وتقسيم العمل الجنساني المميز في حقلي الإنتاج وإعادة الإنتاج .

نقد الأدوار لوحده لا يكفي ، ذلك لأنه لا يراعي الوحدة المعقدة للأسس المادية والنفسية ، ويعيق بالتالي النفوذ إلى العلاقات الموضوعية التحتية . لذلك أيضاً فإن المطالبة بتربية مغايرة ـ فيما لو اقتصر الأمر على ذلك ـ لا تفي بالغرض ، لأنها مبتسرة .

فمن أجل تربية محررة للبنات (والصبيان) لا يمكن تطوير تصورات تربوية متحللة من العلاقات الاجتماعية الموضوعية الحالية ، ما لم تراع العلاقات الاجتماعية الملموسة ، أي علاقات التسلط الجنسانية والطبقية (التي تتضمن أشكالاً مختلفة من التسلط) .

ومن المقدمات الهامة لذلك البرهان الملموس على عدم وجود فروق « طبيعية » يستند إليها التقسيم الجنساني للعمل ، أياً كان نوع هذا التقسيم . بهذا الخصوص قُدمت مساهمة واحدة فقط من بين المساهمات الضرورية الكثيرة ، وهي تحليل الأواليات الأساسية للتربية على « الأنوثة » . هذا البرهان الملموس ذو أهمية خاصة بالنسبة لنا نحن النساء . فبذلك فقط يمكن أن نعي جذرياً ، أن التقسيم المعتاد للعمل بين الجنسين سببه علاقات التسلط المميزة وليس ، كما يظن ، فرقاً « طبيعياً » . هذا يعني ، أنه قابل للتغيير .

إن الالغاء الكلي لأي تقسيم عمل وتخصيص وظيفي جنساني في حقلي الإنتاج وإعادة الإنتاج هو الشرط الرئيسي اللازم لتحرير النساء . بهذا الهدف يتوجب قياس الخطوات الملموسة على طريق التحرير . وتختلف الخطوات نحو هذا الهدف تبعاً لاختلاف تأثر النساء بالواقع ، لكنها تقود إلى الهدف نفسه . فالإمكانات الفعلية لزوجات الرجال البورجوازيين مثلاً تبدو مغايرة لإمكانات زوجات البروليتاريين ، وإمكانات « غير الأمهات » مغايرة لإمكانات الأمهات ، وإمكانات العاملات مغايرة لإمكانات غير المؤهلات ، وإمكانات الشابات مغايرة لإمكانات الأكثر عمراً ، وإمكانات السحاقيات مغايرة لإمكانات العاديات جنسياً والخ .

ماذا يعني هذا على مستوى تربية الأطفال مع أخذ الجانب الجنساني بعين الاعتبار ؟ من ناحية سوف لن تتغير التربية الملموسة للجنسين ، ما لم يبدأ واقع الجنسين بالتغير . ومن ناحية أخرى سوف يتأثر الواقع من جراء تغيير التربية . إن هذا عملية جدلية ، حيث لا يجوز أن ننسى الحقائق الواقعة التي تحدد مضامين التربية ، ولكن لا يجوز أيضاً أن نهوّن من الوعي الممكن ومن بدئيات التغيير الملموس في التربية .

والأمر يبدأ معنا ، نحن الراشدين . علينا أن نتفحص تصوراتنا الخاصة وأنماط

سلوكنا ، وقبل كل شيء أنماط السلوك الجنسانية اللا شعورية (في الولايات المتحدة مثلاً طور بعض النساء استمارات تدور أسئلتها بصورة موسعة حول جميع المجالات الاجتماعية لاضطهاد النساء ، بغرض تحسيسهن به) . ذلك لأنه يجب أولاً وضع السلوك الجنساني المميز لدى المربيات (والمربين) موضع تساؤل . هذا شرط لازم . وإذا ما ابتدأنا نحن بالذات في تغيير أنفسنا وتغيير العلاقات التي نعيشها ، عندئذ نكون قادرين على أن نربي تربية مغايرة .

عندما نكون أولاً نحن النساء عازمات وقادرات على وضع الأعمال « الأنثوية » المميزة موضع تساؤل (شخصياً ومهنياً) ، فإننا سوف لن نربي البنات بعدئذ عليها . وإذا ما طورنا خيارات ، فإننا سوف نقدمها للبنات ونستطيع أن نعيشها معهن . إن استيعاب الأواليات الأساسية لنشوء السلوك « الأنثوي » تساهم إذ ذاك في توعيتنا ، التي هي شرط لازم من أجل إرادة المقاومة والنضال . نحن النساء لا غيرنا القوة والضمان لتحريرنا .

ما يترتب على علم النفس

بقي علينا أن نحدد بشكل أكثر دقة ، ماذا يعني هذا في مختلف المجالات ، في الواقع المعني . على مستوى علم النفس مثلاً علينا أن نبين ، كيف أن هذا العلم بالذات يساهم في تبرير وحجب اضطهاد النساء . يجب تبيان أن هذا العلم لا يقف في خدمة الرأسمال فحسب ، بل في خدمة البطريركية أيضاً . ويعود السبب في أن علم النفس لا يطرح مسألة التسبب الاجتماعي للفروق الجنسانية طرحاً جذرياً كافياً ، إلى أن جواب المسألة لا يمكن أن يكون في صالح علم بطريركي . علينا أن نقوم بذلك بأنفسنا وأن نتفحص ما هو قابل للتفحص .

إن نتائج الأبحاث التي بين أيدينا لا تمثل غير بداية التقصي الجذري للأسباب الفعلية للفروق الجنسانية . بذلك نجد في نفس الوقت أن هناك حدوداً للاستفادة منها . فبما أن نتائج البحث في علم النفس « تتميز » حتى الآن بمنطلق بطريركي ، فلا

تتوفر معلومات كافية للتحليل . بالإضافة إلى أن الجهات الرسمية لا تشجع الاستطلاعات بهذا الشأن . ويعود الفضل في توفر نتائج جديدة والمزيد من المعلومات الميدانية إلى الضغط الكبير الذي تمارسه النساء في الكليات المعنية لبعض الجامعات . وهناك ، إلى جانب قلة المعلومات الميدانية المتوفرة ، مشكلة في أن كثيراً من الدراسات قد أعدت في الخارج ويتوجب للاستفادة منها هنا القيام باستطلاعات جديدة ، ألمانية اتحادية .

واستناداً إلى دراستي تبدو الجوانب التالية بحاجة ماسة إلى البحث :

- الرصد المكثف لمعاملة المواليد الجدد والرضع بالنظر إلى أواليات خلق ما يسمى بالخصائص الأصلية ، ابتداء من لحظة الولادة .
- فحص مكثف للفترة التي وضع فيها لويس وغولدبرغ وكاغان دراساتهم (من الشهر السادس حتى الشهر الثالث عشر من عمر الطفل) .
- كيف وفي أية جزئيات تتكون الفروق المركزية بين الجنسين .
- إلى جانب تحليل المؤثرات المباشرة للمحيط ، يجب التحري بمزيد من الدقة كيف يجري تمثل هذه المؤثرات نفسياً وكيف تتجلى في البنية النفسية .
- يجب أن يحدد بمزيد من الدقة تأثير الآباء والمربين الذكور ، وكذلك الميول الذكورية في أدب الأطفال .
- إعداد دراسات لأعباء العمل الفعلية الواقعة على كاهل البنات من خلال الأعمال المنزلية ، من أجل الإحاطة الدقيقة بمدى ونوع هذه النشاطات .

ومن المهم أيضاً التحري كيف تجري الجمعنة الملموسة للنشاط الجنسي عند البنات والنساء ، التي هي بالتأكيد على الأقل بعمق وخطورة الاشراط في المجالات الأخرى . إن فقدان أي وعي وتجاهل حتى المعرفة المتوفرة في المجال الجنسي يدعو إلى الظن الخطير ، بأن الفروق المتواجدة حالياً في السلوك الجنسي للجنسين هي إلى حد بعيد نتيجة الفروق « الطبيعية » بين الجنسين (وهذا غير وارد - فمن جهة « الطبيعة » يتساوى في بدهيته النشاط الجنسي مع المثل أو مع الغير أو مع الذات !) . إن السلوك

« الأنثوي » و « الذكري » في النشاط الجنسي يؤثر على جميع مجالات الحياة الأخرى للجنسين .

وثمة جانب هام جداً وما زال محرماً كلياً وهو الاستغلال الجنسي المبكر للبنات . فعلى منوال العمل في تدبير المنزل ،تُستغل البنات في المجال الجنسي وبصورة مبكرة ـ غالباً من قبل أقرب الأقرباء والمربين ، من الآباء والأعمام « الطيبين » . فمن الهام جداً هنا كسر الصمت وتبيان انتظام الاستغلال الجنسي للبنات .

كذلك تبدو هامة التحليلات الشاملة لموديلات الأدوار الجنسانية في مختلف وسائل الاعلام ، من أجل إظهار كم هو منتظم هذا الاستغلال المميز للنساء ، في أي مجال حلّ . في الولايات المتحدة قامت النساء ، اللواتي عدن منذ ما يزيد على عشر سنوات إلى النضال الايجابي ، ببعض الأشياء على هذا الصعيد . فلم يضعن مثلاً قوائم بالأدب الجنسوي والأدب غير الجنسوي وتحليلات شاملة لموديلات الأدوار الجنسوية فحسب ، بل إنهن أنشأن أيضاً بأنفسهن أدب أطفال جديد وأخلاقاً جديدة وفرضنها بتحركاتهن ، بحيث أن الكثير من الكتب الجنسوية لم يعد يسمح باستعمالها في المدارس .

وسوف نصل إلى المزيد من المسائل التي يتوجب تمحيصها وتمثلها علمياً ،فيما لو بدأنا بالاصلاح المنهجي لتجاربنا الخاصة ـ بمحاولات لتوجيه أنفسنا من جديد ولتطوير أنماط سلوط جديدة .

ما يترتب على المربين (المربيات)

وماذا يمكن لنا ويتوجب علينا كمربيات (ومربين) أن نفعل اليوم ؟ هناك مستويان للتربية المباشرة المميزة جنسانياً . الأول هو تربية « البنت » و « الصبي » بشكل واع . والثانية هي الاشراط المتباين اللا شعوري للبنات والصبيان . وإني آمل أن أكون قد بينت بجلاء ، أن أولئك الذين يربون بوعي تربية جنسانية مميزة ، الذين يسلمون بأدوار النساء والرجال ويظنون أنه مجرد دور مغاير ، إنما مكافىء ، أولئك يخدعون بكذبة . ذلك لأن المغايرة الأنثوية تقاس بالمعيار الذكري وتتضمن على الدوام دونية .

وفيما يمس المربيات والمربين التقدميين ، الذين يعتقدون أنهم يربون الأطفال الموكلين إليهم تربية متساوية ـ إنما لا يشعرون أنهم يعاملونهم معاملة مختلفة كما يهونون غالباً من التأثير القوي للمحيط ـ ، فإنني آمل أن أكون قد جعلتهم بهذا الكتاب أقل ثقة ، وقبل كل شيء أقل ثقة بأنفسهم : ذلك لأن للتربية اللا متساوية اللا شعورية ذات العواقب الخطيرة التي للتربية اللا متساوية الواعية .

يبدأ الأمر بالمقاييس المختلفة التي تطبقها المربيات (يطبقها المربون) على الأطفال . مثال ذلك ، إذا كانت إحدى البنات الصغيرات أكثر حيوية وغير هادئة في الفراش ، فبالتأكيد ستجري تهدئتها اسرع مما لو كانت صبياً : الحيوية تناسب قالب الأدوار الجنساني التقليدي لصبي أكثر مما تناسب قالب البنت الصغيرة . والراشدون الذين يراقبون أنفسهم بصورة نقدية ، سيكتشفون كم يساهمون لا شعورياً في إعادة إنتاج قوالب الأدوار الجنسانية . سوف يرون أن سلوكهم اليومي يتجاوز بكثير الإطار الذي غطيته في دراستي . ذلك لأن الأواليات المعروضة هنا ليست سوى الذروة من جبل جليدي .

لاحقاً لنتائج كتابي أريد أن أحاول باقتضاب إظهار إمكانات تربية بديلة : يبدأ الأمر بلحظة الولادة ، بالأيام والأسابيع الأولى من عمر الطفل ، حيث تكون الاستثارة الحسية الشاملة على غاية الأهمية بالنسبة لتطور القدرات الذهنية والمعرفية والاجتماعية ، بالنسبة للحركية والتطور العام للطفل . فالاستثارة الحسية المنقوصة تعيق خبرات هامة يتطلبها التطور الملائم . من المهم ، لا سيما في أسابيع وأشهر العمر الأولى ، حيث تتسبب الاستثارة المميزة جنسانياً بالسوابق الأولى لما يسمى بـ « الفرق الأصلي » ، من المهم في هذه الفترة استثارة البنات حسياً بصورة شاملة ، مواجهتهن بالجديد لمسياً وبصرياً وسمعياً ، وتشجيع حركاتهن الجسمية ، نشاطهن العضلي . هنا لم يعد يجوز وضع الأساس للضعف الجسدي اللاحق ، للحصر ضمن الاهتمام بالأشخاص .

إلى جانب الاتصال بالعالم المحيط من خلال تأثيرات الاستثارة الحسية يعتبر الارضاع أهم حدث في مجرى الحياة اليومية للمولود الجديد . عدة مرات يومياً يختبر

الطفل بذلك قبوله ، قبول إيقاعه الشخصي الخاص ، قبول استقلاليته أو خضوعه لإرادة غريبة . هنا بشكل خاص يتوجب احترام وتشجيع استقلالية البنات الصغيرات . علينا أن ننتبه كي لا تفطم البنات قبل الأوان ، وأن لا تربى على النظافة قبل الأوان . يجب أن يعامل كلاهما ، البنت والصبي ، معاملة مماثلة ، يجب أن يتعلما في وقت واحد أن يصبحا مستقلين ، حتى ولو أنهما بذلك سيتابعان « القيام بعمل » .

ويتوجب علينا أن ننتبه جيداً كي تنال البنات مع ازدياد العمر في التطور العام نحو استقلالية فيزيائية أكبر ، مجالاً أكبر للحركة والفعل ، وأن تُشجَّع في استقلاليتها الفيزيائية والنفسية . هذا يعني ، أنه لا يجوز بعد الآن أن تُربط تربوياً بالأشخاص حصراً ويُضيَّق عليها بالنسبة للمحيط الجمادي . هنا يتوجب ، أن تُربى البنات وتُشجع بصورة واعية على الاهتمام بالأشياء ، إلى جانب التربية على السلوك الاجتماعي والاهتمام بالأشخاص .

كذلك يجب أن يكون لنا تأثير واع على مختلف النشاطات اللعبية . نحن نعلم ، أنه من خلال الفعل الحسي ، لدى اللعب الإنشائي مثلاً ، يجري تعلم أنواع من الإدراكات المميزة ، قوانين ، مواد مميزة والاستعمال الملائم لهذه المواد ، بالإضافة إلى ما يتعلق بذلك من تشجيع لمهارات حركية مميزة ، لحركات عشوائية . من المهم أن تُخرق بقوة التصورات التقليدية وأن تترك البنات يعبثن ، لا سيما بالمواد المخصصة للصبيان ، وأن يدعون إلى ذلك (بالعكس يعني ذلك مواجهة الصبيان بقوة مع المواد « المخصصة للبنات ») . إن لهذا كله أهمية كبيرة ، إذ أن العبث بالمواد يكوّن الاهتمامات المميزة وبالتالي يصيغ ما هو نفسي بصورة حاسمة .

لدى ألعاب الأدوار يجب علينا أن نتدخل . لا يجوز أن نسمح بعد الآن بالخضوع الأنثوي ، لا يجوز بعد الآن أن ندع الصبيان يعيدون في حالات اللعب إنتاج السيطرة الذكرية ، أو البنات يعدن إنتاج الخضوع الأنثوي . بالتأكيد سيتوجب علينا أن نفسر تدخلنا ، وسوف تنبق مصالح متناقضة بين البنات والصبيان ، ذلك لأن الأدوار بالفعل ليست بأية حال متماثلة في جاذبيتها .

إلى جانب التمرين العضلي والحركي المبكر يجب تمرين البنات الصغيرات بشكل مكثف على الغلبة الفيزيائية . ويجب أيضاً أن ننتهي من الفصل بين الألعاب الرياضية للبنات والألعاب الرياضية للفتيان . بهذا فقط يمكن وضع النساء في وضع يدافعن فيه عن أنفسهن جسمانياً . ولا يجوز بعد الآن أن تخدم البنات الآباء والأخوة ، إذا لم يكن الصبيان يخدمون بدورهم الأمهات والأخوات .

عموماً يتوجب علينا في النضال ضد مؤثرات المحيط الجنسانية الجسيمة أن ندعم « ما هو ذكري » لدى البنات و « ما هو أنثوي » لدى الصبيان ، هكذا فقط يمكن أن نصل إلى شبه توازن . من حيث المبدأ يجب أن تنال البنات الصغيرات بنفس القدر « لعباً صبيانية » ، كما الصبيان « لعباً بناتية » . فالبنات يجب أن يتربوا بصورة متساوية على الخصائص والقدرات البناتية والصبيانية . إلا أنه بمقدار الاشراط الجنساني الحاصل يتوجب إما تقديم كلا الصنفين بشكل متساو أو أن يشجع أحد الصنفين أكثر من غيره ، أو يتوجب بصورة واعية إزالة أنماط سلوط جنسانية متواجدة .

في بعض الحالات سيصبح هاماً حتى الفصل الواعي بين البنات والصبيان . كلاهما يجب أن ينال إمكانية تحصيل التقصير في القدرات المميزة ، دون أن يقع تحت ضغط الجنس الآخر . فيجب مثلاً على البنات أن يتداركن القوة الجسمانية وكذلك القدرات الحرفية والتقنية ، التي يحقق الصبيان فيها منذ سن معينة سبقاً كبيراً . والتمرين المشترك على هذه المهارات ، مع وجود الفارق أصلاً ، سوف يظهر تقصير البنات ، ويقود إلى التراتب المعتاد ويصعب بالتالي خرقه .

وهكذا سيكون من المهم في المقام الأول دعم البنات بالذات ضد الهيمنة الحاصلة باكراً للصبيان ، وجعلهن في وضع يدافعن فيه عن أنفسهن ويدركن حاجاتهن واهتماماتهن ويفرضنها . إذن على البنات - إلى جانب القدرة على فرض الذات نفسياً - أن يتعلمن أيضاً فرض أنفسهن فيزيائياً . من أجل ذلك ستكون المصارعة مثلاً رياضة هامة جداً ، فيمكن بواسطتها أن يتعلمن الدفاع عن النفس والنضال جسدياً ضد الآخرين . هذا في شروط حالة اللعب ، ولكن بهدف إمكان الاستفادة من ذلك خارج

حالة اللعب . (بالمناسبة ، لمسألة اللباس هنا أهمية كبيرة ، فغالب الألبسة الأنثوية تعيق الانطلاق الحر للحركات) .

هذا كله وغيره ضروري بإلحاح اليوم من أجل تربية محررة للبنات الصغيرات . أما الصبيان الصغار فمصلحتهم في هذه التغييرات ضئيلة بالمقارنة مع البنات ، ذلك أنهم يربحون بصورة مبكرة جداً من التقسيم المميز جنسانياً للعمل والوظيفة . وبذلك فإن قوى وضمانات التغييرات الفعلية لعلاقات السيطرة تكمن هنا أيضاً في البنات أنفسهن ، في تطورهن وفرض اهتماماتهن الخاصة . فالتربية على التأهيل المماثل للجنسين ، التبصر وترك الآخرين وشأنهم من جانب الأقوى هو في أي وقت قابل للاسترداد .

بالتزامن مع التغييرات التربوية يجب على النساء أن يقاومن في جميع مجالات الحياة والعمل الاستغلال والاضطهاد المميز « لأنوثتهن » (دون أن يقتبسن من أجل ذلك الاستغلال « الرجالي » وأن يندمجن في « عالم الرجال ») . عليهن أن يجدن طريقاً ليست امتداداً لطريق « الأنوثة » ولا تقود إلى طريق « الرجولة » . كل هذا يتعارض مع المصالح القوية للرجال . فهؤلاء ينتفعون من العلاقات القائمة في المجال الفردي وكذلك الاجتماعي . لذلك لا يمكن لتحرر النساء أن يكون شأناً فردياً . إن شمول اضطهاد المرأة لجميع المجالات يجب أن يتوضح ،كي نكافحه نحن النساء بصورة مشتركة وكي نصبح عنصر قوة قائماً بذاته . فقوانا الذاتية وحدها يمكن أن تجعلنا نحن النساء حرات .

المحتوى

صدر للمترجم

- مؤلفات :

- ينابيع الثقافة ، اللاذقية 1985 .
- خير الزاد من حكايات شهرزاد ، اللاذقية 1986 .
- نحن والغير في السياسة والاقتصاد ، اللاذقية 1990 .
- أزمة المرأة في المجتمع الذكوري العربي ، ط 2 ، اللاذقية 1992 .

- ترجمات :

- المادية الجدلية والتحليل النفسي ، تأليف فيلهلم رايش ، ط 2 ، بيروت 1982 .
- الطوطم والتابو ، تأليف زيغموند فرويد ، اللاذقية 1983 .
- نمط الانتاج الآسيوي في فكر ماركس وانغلز ، اللاذقية 1988 .
- قصص من الرزنامة ، تأليف برتولت برشت ، اللاذقية 1992 .